فرناندو بيسوا

تربية الرواقي

(المخطوط الوحيد والفريد لبارون تيف)

مكتبة
الفكر الجديد
01-06-2018

ترجمة وتقديم:

إسكندر حبش

منشورات الجمل

فرناندو بيسوا: تربية الرواقي

فرناندو بيسوا

تربية الرواقي

(المخطوط الوحيد والفريد لبارون تيف)

ترجمة وتقديم:

إسكندر حبش

منشورات الجمل

مكتبة الفكر الجديد

فرناندو بيسوا: تربية الرواقي (المخطوط الوحيد والفريد لبارون تيف)

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

الطبعة الأولى ٢٠١٧

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

fernando pessoa: A Educação do Estóico

© Al-Kamel Verlag 2017

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مكتبة الفكر الجديد

تمهيد أول

لا يمكن نشر مخطوط بارون تيف من دون أن نستدعي، وبسرعة، برناردو سواريش: فهذان الاسمان (أو البديلان)، تناوبا على أن يكونا «الكاتبين» المفترضين، وفق فرناندو بيسوا بالطبع، لـ «كتاب القلق»، فالتوازي هنا، يفرض نفسه. لو قلنا ذلك بعبارة أخرى، لوجدنا أن المقابلة (بين الاثنين) تبدو كلعبة مرايا: بارون تيف/ برناردو سواريش؛ «تربية الرواقي»/ «كتاب القلق». صحيح أن التضاد يبدو واضحاً، إلا أن الكائنين ـ كما يشير الباحث البرتغالي ريشارد زينيت ـ يرتبطان بحميمية. لقد عرف البارون مصيرا مأساويا ومدهشا: البحث عن الكمال المطلق الذي يذكرنا بمتطلبات [الشاعر الفرنسي] مالارميه، لكن بارون تيف ذهب إلى أقصى الرحلة، وفق منطقه المستقيم الذي لا يحيد عنه.

إنه هذا الجانب الصارم، في شخصية البارون، الذي يتضاد بقوة مع كلّ أشكال المماطلة والتحليل الذاتي والاستبطان الذي لا ينتهي عند برناردو سواريش. ف «كتاب

مكتبة الفكر الجديد

القلق» هو كتاب اليأس، أما «تربية الرواقي» فهو كتاب الانتحار ـ لا انتحار رجل واحد فقط بل انتحار المبدع الذي يصطدم بإمكانياته المحدودة.

بالإضافة إلى ذلك، نجد أن هذا «البورتريه البيسكولوجي»، قام بيسوا بنصبه بمهارة فائقة حتى على المستوى اللغوي. ففي حين نجد أن إحدى خاصيات «كتاب القلق» هو الاطناب، وتعدد مخططات التأمل التي تتجابه فيما بينها، كما كلّ تعرجات فكر يحاول أن يسبر أغوار، وبدقة، أسرار الوجود، نجد وعلى العكس من ذلك، أن عبارة بارون تيف، لا تقبل أي التفاف ولا أي انزياح نرجسي. ففي حركة مستقيمة متكاملة، تذهب العبارة رأساً إلى هدفها، مثل سهم، فتبدو عندها كلّ ضربة، ضربة مميتة. من هنا يلعب الأسلوب دوراً غير رحيم في هذا النص، وهو بذلك يشبه البارون نفسه. أما القارئ، المفتون بهذه المأساة التي تُشرّح تحت عينيه بدقة جراحية، فسيرافق هذا المسار الذي يحمله رأساً إلى التدمير.

مكتبة الفكر الجديد

تعليق تمهيدي

ريتشارد زينيت

على طريقة الدمى الروسية، يشكل [كتاب] «تربية الرواقي» ـ الذي اقترح فيه بارون تيف أن يقول «ببساطة الأسباب» التي منعته من أن يكتب الأعمال الأدبية التي كان يهجس بها ـ يشكل واحداً من الأعمال العديدة (التي نجدها في قلب المتن البيسواوي) التي لم ينتهِ من كتابتها ولا حتى انتهى من إعدادها. لم ينشر بيسوا طيلة حياته، أي نص باسم بارون تيف، ولا أي نص يمكن أن ننسبه إلى هذا البارون، إلى درجة أنه لم يسمه إلا في واحد من نصوصه «الاستبطانية ـ الذاتية»(*)، العديدة. لكن وعلى خلاف هذه الإشارة النادرة

(*) نجد هذه الإشارة في نص معزول يقول فيه بيسوا: «أسندت إلى تيف هذا التأمل حول اليقين، الذي يمتلكه المجانين بشكل أفضل منّا». ويقوم زينيت بمقارنة مطولة، بين تيف وسواريش في مقدمته التي حملت عنوان «متخيلات الفاصل الترفيهي» المنشورة في الطبعة الثانية للترجمة الفرنسية=

مكتبة الفكر الجديد

للبارون، كتب بيسوا بشكل مكثف وبعناية شديدة، باسم هذا الرجل ـ الذي يشكل أحد بدلائه ـ «الذي سيصدر أعماله قريباً»، على ما جاء في رسالة (بعث بها بيسوا) إلى جوان غاسبار سيمويش، وهي مؤرخة بتاريخ ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٣٢ (أي قبل ثلاث سنوات من رحيله).

أول من كشف عن شخصية بارون تيف، كانت ماريا أليبتي غاليوز، حين نشرت بعض المقاطع الحاملة لاسم البارون في مقدمتها لـ «الأعمال الكاملة» (التي أشرفت عليها) وصدرت العام ١٩٦٠ في ريو دو جانيرو (البرازيل). بدورها، قامت تيريزا ريتا لوبيز، بنشر بعض المقاطع (غير المنشورة سابقاً) في بحثها الموسوم الذي حمل عنوان Pessoa por conhecer أي «بيسوا للاكتشاف»، الصادر في لشبونة العام ١٩٩٠).

يشكل هذا الكتاب، أول عمل كامل منسوب لبارون تيف، وهو يجمع ـ بالإضافة إلى العديد من المقاطع المعزولة والمتفرقة ـ مخطوطات وأوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة ـ النصوص المتعددة العائدة للبارون التي كانت موجودة في دفتر صغير، أسود الغلاف، لم يقم أحد بنقلها

=(الكاملة) من «كتاب القلق» الصادرة عن منشورات «كريستيان بورغوا» في باريس العام ١٩٩٩.

مكتبة الفكر الجديد

بعد إلى حين إعداد هذا الكتاب. كان من الصعب جداً فكّ حروفها كما كان صعباً تنظيمها في سياق واضح، إذ أنها تتشكل أساساً من ملاحظات وتخطيطات كان بيسوا ينوي إعادة العمل عليها لاحقاً. بعض هذه الملاحظات، في الواقع، عاد بيسوا وعمل عليها وقام بطباعتها على الآلة الكاتبة، إلا أن غالبيتها بقيت كما كلّ بقية أعمال تيف ـ أي **«أفكار فجائية، مدهشة (...) لكن بدون أي رابط فيما بينها،** مطالبة بأن تُنسج معاً لتنتصب مثل التماثيل»... ـ التي أحرقها، على قوله، في نار المدفأة.

كان تقديم بعض المقاطع، الموجودة في هذا الدفتر الصغير، على حدا، خيار «عملية النشر» وهو خيار مبرر بشكل كامل (سيفرض نفسه لاحقاً في أي عمل نقدي)، إذ بخلاف ذلك، سيحظى بأفضلية إظهار المسار المبدع المنطلق من فكرة إلى أخرى، من موضوع إلى آخر، فأحياناً يعود إلى الوراء، وتارة ينطلق نحو اتجاه جديد. فقط، ثمة العديد من الملاحظات التي بقيت مبعثرة بشكل كبير لدرجة أنها كانت لتضيع في هذه المتاهة أو ربما لكان القارئ نفسه ضاع فيها.

لهذا السبب اخترت أن أمزج، وبنفس روحية الدفتر الأسود، بعض المقاطع الأخرى لدو تيف، مقرّبا ـ فيما بينها ـ بعض التفاصيل العائدة «للسيرة الذاتية» التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

متفرقة (ملاحظتان حول طفولته على سبيل المثال) أو في جمعي تأملات مبعثرة لكن تحمل الثيمة عينها. علينا أن لا نجد في هذا الأمر «عملية جراحية»، لأني احترمت كلّ مقطع متكامل وأبقيته كما هو عليه، وإن لم أحترم كثيراً «إعادة البناء» المزيف لمتن مجموع لم ينوجد يوماً. لنقل ببساطة إنها محاولة من أجل إظهار الأحجار ـ أكانت منحوتة أم في حالتها الخام بعد ـ لنُصب لم ينتصب يوما فوق الأرض.

تنظيم هذا الكتاب

ثمة عناوين عديدة محتملة لهذا الكتاب، وكلها بخط بيسوا: «مخطوط(*) وحيد وفريد» لبارون تيف، «تربية الرواقي»، «مهنة غير منتج»، وأخيراً «مخطوط وجد في دُرج». بعض النصوص الموجودة في «الأعمال الكاملة» (كما ذكرت أعلاه) غير حاضرة في هذه الطبعة: كما كانت الحال في المقطع الذي أدخلته في «كتاب القلق» تحت الرقم ٢٠٧، ومقطع آخر قيل إنها تشكل جزءاً من حكاية «دافنيس وكلوي»، لكن بدون أي علاقة لها لا مع هذا النص ولا، من قريب أو بعيد، مع بارون تيف. وبخلاف ذلك، أدخلت في الملحق ثلاث نصوص بدا لي موضوعها ذو أهمية

(*) ثمة تنويع آخر يضعه بيسوا في الهامش: كلمة «كتابة».

مكتبة الفكر الجديد

خاصة: فمن جهة نص «المبارزة» ومن جهة أخرى، هناك نصان كُتِبَا مباشرة باللغة الإنكليزية (وهي اللغة التي تعلمها بيسوا خلال طفولته في جنوب إفريقيا).

كلّ المقاطع المجموعة هنا تتبدى ـ طبيعياً ـ في فوضى عارمة في النص الأصلي، ولا تسمح حتى ـ وبصراحة ـ في نزع الحدود عن هذا المقطع أو ذاك؛ هذا الكتاب الصغير، وكما نقدمه، يعطي بالتأكيد انعكاساً مخلصاً (لما كان عليه في الأصل).

مكتبة الفكر الجديد

ملاحظة في النشر

بما أننا قدمنا التناقضات التي تعطي مجالاً ـ عند الأخصائيين ـ في نشر أعمال بيسوا، نعتقد أنه من المفيد الإشارة هنا، إلى الأصل الدقيق لهذه النصوص المنشورة في هذا الكتاب، والتي تشكل جزءاً من ميراث بيسوا في «المكتبة الوطنية» في لشبونة. هذه النصوص، الموقعة كلّها باسم بارون تيف، موجودة في ثلاث أصول مختلفة:

ـ دفتر أسود، كان لا يزال غير منشور إلى اللحظة هذه ومنسوب بالاسم، من قبل بيسوا، إلى بارون تيف.

ـ عدة نصوص متفرقة موقعة باسم بارون تيف وقد وضعها بيسوا في مغلف كبير يحوي كلّ النصوص التي كان يرغب في نشرها ضمن «كتاب القلق»، نصوص تيف هذه استبعدت من كلّ عمليات النشر في البرتغال لـ «كتاب القلق»، إذ أن «المؤلف» الأصلي لم يكن تيف بل برناردو سواريش.

مكتبة الفكر الجديد

ـ أخيراً، ثمة مقاطع أخرى، موقعة أيضاً باسم تيف، تم العثور عليها في أماكن متفرقة من صندوق بيسوا.

ملاحظة أخيرة: كل النقاط بين معقوفين تشير إلى كلمات غير مقروءة في النص الأصلي.

مكتبة الفكر الجديد

تربية الرواقي

المخطوط الوحيد والفريد لبارون تيف

عن استحالة إبداع فنّ متفوق

مكتبة الفكر الجديد

مخطوط وُجِدَ في دُرج

لكيلا أترك هذا الكتاب، فوق طاولة غرفتي، ولكيلا أعرضه كثيراً لتفحص الأيدي ـ الواضحة بشك ـ أيدي عمّال الفندق، فتحت ـ وبدون أي مجهود يُذكر ـ دُرج طاولتي لأدعه ينزلق إلى داخله، دافعاً إيّاه إلى أعمق أعماقه. بيد أنه اصطدم بشيء ما، فالدُرج كان عميقاً إلى درجة كبيرة.

مكتبة الفكر الجديد

لقد شاهدنا كيف ضربنا، أعمق أنواع الجفاف، وأكثره قتلاً ـ ذاك الجفاف الذي يولد من معرفة خواء جهدنا الأكثر حميمية، ومن ابتذال جميع مخططاتنا.

لقد وصلت إلى التُخمة من الفناء، إلى الامتلاء من العدم المطلق. وما سيدفعني إلى الانتحار، هو تلك الاندفاعة التي تشبه الاندفاعة التي تجعلنا نستيقظ باكراً. أكابد نعاساً حميماً من قبل جميع مقاصدي.

ما من شيء اليوم، يمكن له أن يبدل حياتي. بلى... أو إلا... أجل، بيد أن *إذَا* تُمثل دائماً شيئاً لم يحدث بعد؛ وبما أن هذا الأمر لم يحدث بعد، ما نفع أن نتخيل إذاً ما يمكن له أن يكون عليه؟

أشعر بأني قريب جداً، لأنني أريد لهذا أن يكون كذلك، من نهاية وجودي. أمضيت هذين اليومين الأخيرين، في إضرام النار شيئاً بعد الآخر ـ وقد استغرق الأمر يومين، لأنني بين فينة وأخرى كنت أعيد القراءة ـ قراءة كامل

مكتبة الفكر الجديد

كتاباتي: ملاحظات حول أفكار ميتة، تأملات أو مقاطع، مكتملة أحياناً، مهيأة لأعمال لم يكن عليّ أن أكتبها أبداً.

من دون أي تردد، لكن ليس من دون هذه الكآبة البطيئة، حققت هذه التضحية التي كنت أرغب من خلالها ـ وكما لو كنّا نحرق خلفنا الجسور ـ في أن أمنح نفسي إجازة من ضفة هذه الحياة التي سأغادرها. أشعر بأني حرّ وعازم. سأقتلني؛ سأقتل نفسي قريباً. إلا أنني، على الأقل، سأترك ـ وبكلّ الدقة التي كنت جديراً بها ـ هذه اللوحة الداخلية عمّا كنت عليه. أرغب ـ وبما أنني لا أستطيع أن أخلّف ورائي موكبا من الأكاذيب الجميلة ـ في أن أترك هذا القليل من الحقيقة الذي يعطينا الكذب، في كلّ شيء، وهم استطاعة التعبير عنها.

سيبقى هذا المخطوط الوحيد الذي أتركه. لن أوصي به أبداً، مثل باكون[1] (Bacon)، يوم الدينونة الرحيم، بل ـ ومن دون أي نيّة في إقامة المقارنات معه ـ كي يتأمله أولئك الذين سيجعلهم المستقبل مساوين لي.

أملك اليوم (وبعد أن قطعت كلّ الصلات ـ ما عدا واحدة ـ بين الحياة وبيني) وضوح الروح كي أشعر، ووضوح الذكاء كي أفهم، هذا ما يعطيني قوة الكلمات اللازمة، لا من أجل تحقيق العمل الذي لم أستطع إنجازه أبداً، بل من

(١) باكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، سياسي وعالم وفيلسوف بريطاني.

مكتبة الفكر الجديد

أجل أن أقول، وببساطة شديدة، الأسباب التي دفعتني لعدم القيام بذلك.

لا تشكل هذه الصفحات اعترافاً أبداً، بل هي تعريف عنّي. أشعر، وأنا أبدأ الكتابة، بأنه يمكن لي القيام بذلك ببعض سمات الحقيقة.

حول هذه النقطة، أظهر المنتحر مسبقاً بأنه غير عادل تجاه نفسه. في الواقع، نقل المراسل المحلي لصحيفة (Diario de Noticias)[1] بهذه الكلمات، خبر الوفاة إلى صحيفته: «علمنا أمس انتحار ـ وفي منزله في ماسييرا ـ السيد ألفارو كويليو دي أثايدي، بارون تيف العشرين، المنتمي إلى إحدى أفضل عائلات المنطقة. وقد أثارت نهاية بارون تيف الحزينة، الذهول العميق، إذ أن الراحل كان يتمتع باحترام كامل نظراً لنبل طباعه».

مسكن دو ماسييرا، ٢٠ تموز ١٩٢٠

---

(١) من أهم صحف البرتغال، في ذاك العصر كما في العصر الراهن.

مكتبة الفكر الجديد

ما من مأساة أكبر من هذه الكثافة المتساوية، في الروح عينها أو في الإنسان ذاته، ما بين الشعور المثقف والشعور الأخلاقي. لكي يكن المرء أخلاقياً بشكل لا لُبس فيه و«بشكل مطلق»، عليه أن يكون أحمق قليلاً. وليكون مثقفا بشكل مطلق، عليه أن يكون لا أخلاقيا قليلاً. لا أعرف أي لعبة أو أي سخرية قدر تحكم، عند الإنسان، هذه الثنائية المحمولة إلى درجة عليا. ولبؤسي الشديد، أجدها تتحقق في داخلي. وبما أنني أملك فضيلتين، لم أستطع أبداً صنع أي شيء من نفسي. لم يقتلني(*) في الحياة شطط صفة [على أخرى]، بل بسبب الاثنتين معاً.

في كلّ مرة التقيت، وفي أي مجال من المجالات، منافساً أو إمكانية وجود منافس، كنت أتخلّى عن الأمر

(*) ثمة تنويع آخر يضعه بيسوا في الهامش بدلا من هذه الكلمة: أذبلني/ أذواني.

مكتبة الفكر الجديد

بسرعة، وبدون أي تردد. هي من اللحظات النادرة في حياتي التي لم أعرف فيها التردد. لم يسمح لي كبريائي مطلقاً أن أدخل في منافسة مع أي أحد آخر، فيما لو كنت أمتلك بخلاف ذلك التصور الذليل لهزيمة محتملة. أضف إلى ذلك، لم أستطع يوماً الاشتراك في أي مسابقة. إذ لو كنت خسرت، لكنت دائماً شعرت بالضغينة والغضب. هل لأني أظن نفسي متفوقاً على الآخرين؟ بالتأكيد لا، لأنني لم أعتقد يوما بتفوقي، أكان ذلك في لعبة الشطرنج أم في لعب الورق. لكن بسبب الكبرياء، الكبرياء الذي يطفح من جميع الجهات وينزف، من دون أن يتمكن أي مجهود يائس عائد لذكائي أن يحتويه أو أن يعزله. لقد وضعت نفسي دائماً على هامش العالم والحياة، والصدمة التي كانت يسببها عندي أحد عناصرهما، جرحتني دائماً مثل شتيمة أطلقت من الأسفل، مثل ثورة خادم كوني فجائية.

ما كان يثير سخطي، بخاصة، ضد نفسي في لحظات الشك الأليم هذه ـ (بينما كنت أعرف مسبقاً بكثير، بأن حلّ شكوكي يكمن في أن ليس عندي أي شك) ـ كان تسلل العامل الاجتماعي في لعبة قراراتي غير المنتظمة. لم أستطع يوما أن أتخطى تأثير الوراثة والتربية خلال طفولتي. لقد نجحت دوما في إبعاد مفاهيم النُّبل العقيمة كما الوضع

مكتبة الفكر الجديد

الاجتماعي؛ لكنني لم أستطع التخلص منها. إنها موجودة في داخلي مثل جُبن أكرهه، أثور ضده، إلا أنه يشدّني بروابط غريبة(*) عن الذكاء والإرادة. أتيحت لي، ذات يوم، إمكانية الزواج من شابة بسيطة، ومن يعرف؟ لربما كنت سعيداً معها؛ إلا أنني شعرت بأنه يقف بيني وبينها، في تردد روحي، أربعة عشر جيلا من البارونات، ورؤية مدينة بأكملها تبتسم من هذا الزواج، وسخرية الأصدقاء (حتى وإن ليسوا أصدقاء حميمين)، وذاك الحرج الهائل المنسوج من النذالة، إلا أنها نذالة متعددة لدرجة أن الحرج كان يأتي ليثقل عليّ وكأنه جريمة. لهذا وعبر ذكائي بأسره وعدم اكتراثي، فقدت السعادة بسبب الجيران الذين أحتقرهم.

الطريقة التي كانت سترتدي بها ثيابها، والتي ستقف فيها لاستقبال الناس، في حين ربما ليس لدي من أستقبله، كلّ هذه الارتباكات في خطابها وفي تماسكها ـ التي لن ينجح حنانها في أن ينسيني إيّاه ولا في أن تخفيه عاطفتها عن عينيّ ـ كلّ ذلك كان ينتصب مثل شبح الأشياء الجديّة بشكل مطلق، وكما لو أن ذلك يشكل حجة مقنعة، خلال السهرات التي كنت أصارع فيها، ما بين رغبتي في الحصول عليها

(*) ثمة تنويع آخر للكلمة يضعه بيسوا في الهامش: روابط عليا.

مكتبة الفكر الجديد

وبين هذه الشبكة الواسعة من الاستحالات التي تعثرت بها دوماً.

ما زلت أذكر، وبدقة حيث كان ينزلق العطر الشاسع من الجو الربيعي، من السهرة التي كنت أفكر فيها بكل هذه الأمور، لأصل إلى رفض أن الحب هو بمثابة مسألة لا حلّ لها. حدث ذلك في أيار (مايو)، إحدى شهور أيار المالك لنداوة الصيف، حيث يُزهر كلّ شيء فوق مساحات أراضيّ، بألوان مختلفة مغطاة بسقوف النهار البطيء. كنت أنزّه ندمي عبر باقات الأشجار القليلة. تناولت العشاء باكراً وكنت أسير، وحيداً مثل رمز، تحت الظلال العديمة النفع وتحت بطء همسات الأغصان الواضحة. فجأة، تملكتني رغبة كثيفة من التخلي المطلق، من الاحتجاب الحازم والنهائي؛ من اشمئزاز عميق تجاه كلّ هذه الرغبات، هذه الآمال التي كان بإمكاني ـ من الخارج ـ أن أحققها بسهولة، في حين، داخلياً، كان يتراءى لي أنه من المستحيل حتى أن أتمناه. في هذه الساعة الندية والحزينة بدأ تاريخ انتحاري.

... الزهد اللاإرادي والضعيف للطبائع التي يكون عندها الذكاء مثل الدورة الدموية؛ إنه الشرط الأساسي، قاعدة الحياة العضوية.

مكتبة الفكر الجديد

الهواء، في بعد الظهيرة الخريفية هذه، كان ذا نداوة كبيرة، والجبال في البعيد كانت تتقاطع بوضوح بارد. بالرغم من كلّ شيء، لم أكن أفكر في ذلك كله، بل بأفكاري فقط؛ كلّ ما حدث يبدو لي أكثر حزناً ممّا لو أنه لم يحدث أبداً.

مكتبة الفكر الجديد

(كنت طفلاً)

... التسامح تجاه كلّ نزواتي وكلّ رغباتي ـ التي كانت تقتصر على لا شيء تقريباً، والتي تتشكل بخاصة من الرغبة في أن أبقى وحيداً.

في طفولتي، كنت حاقداً ومنتقماً، وقد فقدت، وأنا أتقدم في سنّ المراهقة، هذا الجانب الخسيس العائد لحساسية مفرطة. (أفترض أن من لعب دوراً في هذه النتيجة، بطريقة أو أخرى، ما ظهر عندي من طاقة على الفكر المجرد). إلا أنه لا يزال كامناً فيّ مثلما كان عليه، حتى وإن كان في غير مكانه. لا أزال أشعر بالأسف اليوم على فقدان فكرة، على هروب جملة من ذاكرتي كنت أرغب في كتابتها، على ملاحظة كنت أريد تثبيتها. أعرف جيداً بأنني لن انجح، في أغلب الأحيان، في إعطاء جسد حقيقي لهذه المخططات الأولية. بيد أنني كنت أظهر غيرة من نفسي، رغبة في التجريد جشعة تقريباً، فقد لاحظت بأن الجشع والميل إلى

مكتبة الفكر الجديد

الانتقام ـ ربما لأنهما شكلان من أشكال الخساسة ـ يمتلكان أواصر قربى كما أنهما من الدم عينه.

ثمة أفكار فجائية، مدهشة، يُعبر عنها جزئيا عبر كلمات مكثفة، إلا أنه ما من ترابط بينها، مطالبة فيما بعد بأن تُنسج معا وأن تنهض، مثل أنصاب؛ بيد أن رغبتي لم تكن في اصطحابها فيما لو أرادت أن تسير على خطوة علم الجمال عينه، وأن لا تبقى في حالة المقاطع العائدة لحكاية افتراضية؛ أجل، لا شيء سوى الأسطر التي تبدو مدهشة إلا أنها ـ في الواقع ـ لن تكون موجودة، بدون أن نكتب حولها، هذه الحكاية التي شكلت لحظات قوية، عبارات مركبة، علاقات... بعض هذه الأفكار شكلت خطوطاً روحية، مدهشة بالتأكيد، إلا أنها غير مفهومة بدون ـ حولها ـ هذا النص الذي لم يُكتب أبداً.

أضع حدّاً لوجود تراءى لي أنه كان يمكن له أن يعرف كلّ أنواع العظمة، في حين أنه لم يعرف سوى عدم قدرتي على تحقيقها. وحين كانت تتملكني بعض اليقينيات، كنت أتذكر أن المجانين يمتلكون بعض هذه اليقينيات وبشكل أكبر.

إن الهمّ بالدقة، والكثافة في المجهود للوصول إلى الكمال البعيد عن أن يكون بمثابة منشطات للحدث، يشكلان

مكتبة الفكر الجديد

كفاءات للكائن الحميمي التي تقود إلى التخلي. من الأفضل أن نحلم من أن ننوجد. من السهل جداً الحصول على كلّ شيء من خلال الحلم!

ألوف الأفكار تنبجس دفعة واحدة، والعدد عينه من القصائد أيضاً التي تُشع بدون جدوى. كان عددها لا يُحصى لدرجة أنني لا أستطيع تذكرها كلها حين كنت أمسك بها جيداً، وبشكل أقل حين أضعتها برمتها.

بقيت عندي العواطف الصغيرة. نسمة هواء عليل في زاوية ريف مطمئنة تبدو كأنها تقتل روحي. موجة بعيدة من عزف جوقة على الشارع الرئيسي، تثير فيّ أنغاماً تتخطى من بعيد كلّ السيمفونيات. أمام عجوز صغيرة على عتبة بيتها، أشفق على كلّ طيبة العالم. يمكن لصبي متسخ، جامد أمامي، أن ينيرني. ألتذ بمشهد عندي يأتي ليقف على سلك كهربائي، فكل ذلك كان يتخطاني بشكل لا نهائي، كما رؤيا مبهمة مرتبطة بالحقيقة نفسها.

أنتمي إلى جيل ـ على اعتبار أن المدعو الجيل هذا يضم أعضاء آخرين غيري ـ فقد بالطبع الإيمان بكل آلهة الجاهلية، كما الإيمان بآلهة اللاديانات الحديثة. لا يمكنني القبول لا بشهود يهوه ولا بالإنسانية. المسيح والتقدم هما بالنسبة إليّ أساطير نابعة من العالم عينه. لا أؤمن لا بالعذراء مريم ولا بالكهرباء.

مكتبة الفكر الجديد

كنت دوما دقيق الفكر، متطلباً من اللغة التي سأكتب بها، ومن تصميم الأفكار التي سأعرضها.

لقد حطم موتها(*) آخر الروابط الخارجية التي كانت لا تزال تربطني إلى حساسيتي تجاه الحياة. بداية كنت أشعر بأنني طائش ـ بهذا النوع من الطيش الذي لا يفعل شيئاً سوى ارتكاب الأخطاء، إلا أنه يشبه فراغاً داخل مخّنا، يشبه معرفة غريزية بالعدم. فيما بعد، انتهى الأمر بالقرف من الحياة ـ الذي أصبح قلقاً، بأن خدرني بالسأم، ببساطة.

أصبح حبها بالنسبة إليّ(١)، الذي لم أره بوضوح مطلقاً وهي بعد على قيد الحياة، أمراً بديهياً حين فقدتها.

اكتشفت، حين فقدتها ـ وهكذا نكتشف قيمة كلّ شيء ـ بأن العاطفة كانت ضرورية بالنسبة إليّ؛ وبأنها، مثل الهواء، نتنشقها بدون أن نشعر به.

أجمع داخلي كلّ الشروط لكي أكون سعيداً، ما عدا السعادة نفسها. لا تملك، ما يمكن لها أن تكون، هذه الشروط، أي رابط فيما بينها.

(*) يشير المخطوط إلى «موت والدتي».

(١) لنذكر، ومن دون أن نثقل محتوى هذا النص ذات السيرة الذاتية، أن بيسوا فقد والدته، التي كان متعلقا بها، العام ١٩٢٥، عن عمر ٣٧ عاماً.

مكتبة الفكر الجديد

إنني الاتزان الذي كان عليه رينيه[١] في مراهقته. لا يتبدل النوع أبداً، بل الصنف فقط؛ إنها حركة الروح عينها التي تستدير نحو نفسها، عدم الرضا ذاته.

يشعر المراهقون، وبالرغم من كلّ عذاباتهم، بالنبض الكفيف الذي يدفعهم نحو الحياة. روسو [...]، كان يحكم أوروبا. شاتوبريان كان يجهش ويبكي، إلا أنه لم يكن أقل من وزير.

رأى فيني[٢] مسرحياته وهي تقدم. بشّر أنتيرو[٣] بالاشتراكية. ليوباردي[٤] فقيه لغوي.

أضع ريشتي، من دون أن أضعها[*]، وأرى، عبر النافذة المشرعة نحو الحقول، ضوء القمر، مع القمر العالي والمستدير الواضع في الهواء، هواء للنظر. في أغلب الأحيان يرافقني مشهد مماثل طيلة فترة تأملي التي لا تنتهي، طيلة أحلامي التي بدون هدف، طيلة سهرات بدون عمل أو كلمات.

---

(١) غالباً ما يستعيد بيسوا بطل شاتوبريان كمرجع في أعماله.

(٢) ألفريد دو فيني، شاعر وكاتب فرنسي (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣).

(٣) أنتيرو دو كوينتال، من أكبر شعراء المرحلة الرومنسية الثانية.

(٤) جياكومو ليوباردي (١٧٩٨ ـ ١٨٣٧) من أكبر شعراء إيطاليا في كلّ العصور.

(*) للتذكير، كلمة Pena بالبرتغالية، تشير في الوقت عينه إلى الريشة (القلم) وإلى الحزن والألم.

مكتبة الفكر الجديد

أشعر أن قلبي بمثابة ثقل غير عضوي.

في صمت الفجر الثابت، الأسود بالكامل، تتقطع وجوههم كما لو أن الحقيقة موجودة.

مستحيل هو مسار الحياة العقلاني. لا ينجب الذكاء أي قاعدة. وفهمت حينها، الخبيء ربما، في أسطورة *السقوط*: لقد صعقت عين روحي، مثلما تصعق عين الجسد، ببرق، بالمعنى الرهيب والحقيقي لهذه المحاولة التي دفعت آدم إلى الأكل من الشجرة المسماة شجرة العلم.

ما أن ينوجد الذكاء، تصبح كلّ حياة مستحيلة.

رفضي الحميم لكل انشغال ميتافيزيقي، قرفي الأخلاقي من كلّ منهجة للمجهول، لا يتأتيان ـ كما عند أغلب الناس الذين يجدون أنفسهم متناغمين معي ـ من عدم القدرة على التأمل. لقد فكرت وعرفت.

رميت القواعد، قبل أي شيء، بطريقة ابستيمولوجية وبيسكولوجية، اخترعت، من أجل ذكائي، أنساقاً، حكماً تحليلياً من أجل منتجيها. لا أريد القول إني اكتشفت أن واقعة أي فلسفة هي، ببساطة، التعبير عن طبع ما، وأتخيل أن عديدين غيري، اكتشفوا ذلك قبلي بكثير. ما اكتشفته، ولأجل تعليمي، أن الطبع يمكن له أن يكون فلسفة.

تراءى لي دائماً، أن الإفادة التي يمكن لنا أن نحملها إلى

مكتبة الفكر الجديد

ذواتنا، تكمن في العلامة التي تشير إلى نقص في التربية، أكان ذلك في الأدب أم في الفلسفة. حين نكتب، فإننا لا نفكر بأن الكتابة هي أيضاً أن نتكلم، إذ ثمة العديد من الأشخاص يكتبون ما لا يجرؤون أبداً على قوله. يذهب البعض، على مرّ صفحات وصفحات، إلى تحليل كينونتهم العميقة وشرحها، في حين أنهم لا يسمحون بتاتاً (البعض منهم على الأقل) بإتعاب مستمعيهم، حتى وإن كانوا يتحدثون جيداً، في هذا العزف المنفرد، عن شخصياتهم(*).

يشكل التشاؤم، في أغلب الأحيان ـ ومثلما استطعت استنتاج ذلك ـ ظاهرة من ظواهر الرفض الجنسي. وهذا أمر واضح جداً في حالة كلّ من ليوباردي أو أنتيرو. ففي تصميم هذا النسق الذي يتأسس ـ في الواقع ـ على ظواهر جنسيّة، شخصية كلّها، لا يمكنني منع نفسي من أن أرى، وبصرامة، شيئاً فظاً وخسيساً. تحتاج كلّ الكائنات التي تتمتع بالفظاظة إلى «النوتة» الجنسية، وهذا ما يميزهم في واقع الأمر. لا

(*) من المفيد هنا ـ وقبل قراءة ترجمة نص ريتشارد زينيت، الموجودة في آخر الكتاب ـ الإشارة إلى أن بارون تيف، كان بشكل ما، نصف شقيق أو على أقل تقدير الأخ العدو لبرناردو سواريش صاحب الكتاب العملاق «كتاب القلق» (أو «كتاب اللاطمأنينة»، وفق ما ترجم، راجع ما يخص عنوان هذا الكتاب، المقدمة التي كتبناها لترجمة سابقة لبيسوا، قصدت كتاب «لست ذا شأن ـ شذرات»، الصادر أيضاً عن منشورات «الجمل»).

مكتبة الفكر الجديد

يمكنهم أن يرووا أقاصيص مسّلية خارج الجنسانية؛ لا يمكنهم صناعة كلمة من روح خارج الجنسانية. يجدون سبباً جنسياً، في جميع الأزواج، كي يشكلوا زوجين.

من الذي شاهد إذاً نظام الكون مع العجز الجنسي الذي أصاب «فلان» أو «علان»؟

أعرف جيداً بأنني، في هذه الصفحات، أبدو مزيفاً بالنسبة إلى المبدأ الذي اتخذته قاعدة انطلاق. بيد أن هذه الصفحات تشكل وصيّة، وفي الوصايا، يضطر الذي يوصي أن يتحدث عن نفسه. ثمة هامش ما من التسامح تجاه المحتضرين، وهذه الكلمات هي كلمات محتضر.

الشرّ غير موجود في فردانيتنا، بل في هذا النوع من الفردانية التي هي فردانيتنا، أي الساكنة لا الدينامية (المتحركة). من وجهة نظرنا، تتعلق قيمتنا بما نفكر فيه، لا بما نقوم به. ننسى أن ما لم نقم به يعني أننا لم نكن عليه؛ بأن أولى وظائف الحياة تكمن في العمل، حتى أن أولى سمات الأشياء هي الحركة.

نفرد الأهمية القصوى لأفكارنا لأنها ببساطة هي أفكارنا. نعتبر أنفسنا، لا أبداً كما قال ذاك الإغريقي(*) بأننا «قياس كلّ شيء»، بل لأننا القاعدة والمقياس: فنحن بذلك لم

(*) فيثاغورس.

مكتبة الفكر الجديد

نخترع بيننا تأويلا، بل نقدا للكون (بينما في الواقع، نحن لا نعرفه ولن نتمكن من نقده)؛ لنرى لاحقاً النفوس الأضعف والأكثر خرابا بيننا وهي تُشيّد من هذا النقد تأويلاً ـ تأويلاً مفروضاً كهلوسة، لا عبر استنتاج، بل عبر استقراء صاف وبسيط. يوصف الأمر هنا بهلوسة موسومة، أي وهم ولد من واقعة فُهمت بطريقة سيئة.

حين يكون كئيباً، يكون الإنسان المعاصر شخصاً متشائماً.

ثمة خِسة، ثمة انحطاط في نقل مآسينا إلى الكون بأسره؛ هناك نوع من الأنانية الدنيئة في الافتراض أن الكون بأكمله موجود في أعماقنا، أو بأننا ـ بطريقة ما ـ نحن مركز هذا الكون أم ملخصه أو رمزه.

قد تبدو واقعة أنني أتألم، في الحقيقة، متنافرة مع كينونة مبدع الطيبة بشكل كامل، من دون أن يبرهن ذلك عن لا كينونة مبدع ما، ولا حتى عن كينونة مبدع سيء، ولا أيضاً عن كينونة مبدع عادل. إنما تبرهن، ببساطة، عن وجود الشرّ في العالم ـ وهذا لا يمثل أبداً أي اكتشاف ولم يحظ بعد أي شخص بفكرة نكران الأمر.

نعطي قيمة وأهمية لأحاسيسنا، لسبب واحد فقط وهي أنها أحاسيسنا ـ وهذا ما نفعله بوعي أم بغير وعي؛ أضف

مكتبة الفكر الجديد

إلى ذلك هذا الاعتداد المتحول إلى دواخلنا والذي نصفه بالفخر، بل أننا نصفه بحقيقة حقيقتنا الخاصة الصالحة لكل الأنواع الحيّة.

هذا الصراع الذي يحرق روحنا، عبَّر عنه أنتيرو أكثر من أي شاعر آخر، لأنه كان يمتلك ـ وعلى الدرجة عينها ـ شموخ العواطف وشموخ الذكاء. إنه الصراع ما بين الحاجة العاطفية للإيمان واستحالة إيمان المثقف.

لقد نجحت في المحصلة النهائية في صوغ هذه المنطلقات، بمثابة أساس قاعدة ثقافية للحياة.

لست نادماً مطلقاً على حرقي تخطيطات جميع أعمالي. وليس لدي ما أوصي به العالم إلا هذه الصفحات.

مهما كان عليه سرّ غموض الأشياء، إلا أنه معقد بدون أدنى شك؛ أمّا، إذا كان بسيطاً، فهو على درجة من البساطة لا يمكن لأي من كفاءاتنا القبض عليه. معضلتي الكبرى تجاه كلّ المذاهب الفلسفية أنها على قدر كبير من البساطة؛ هوسها في التفسير عبر برهان كاف، لأن الشرح، معناه التبسيط.

كم أن نظرية الشرّ فانتازية عند سوام جينيينس(*)، على

(*) شاعر وناقد وباحث، يعد جينيس (١٧٠٤ ـ ١٧٨٧) صاحب كتاب=

مكتبة الفكر الجديد

الأقل إنها ليست عبثية، مثل نظرية الله الكلّي القدرة والطيّب، بل خالق الشرّ، لأنه هو كلّ شيء. تمثل فرضية سوام جينييس حتى أفضلية التشابه ـ قد تكون وهمية، لكنها واضحة جداً ـ؛ في الواقع، الأمر هو عينه، حين نتدخل في حياة الكائنات التي هي أقل درجة منّا ـ لنقدم لهم الخير أحياناً، وتارة السوء؛ أحياناً نتدخل من أجل صالحهم متأملين أن نقدم لهم السوء، والعكس صحيح أيضاً. أضف إلى ذلك، أن الأمر مشابه أحياناً حين تتصرف، تجاهنا، وبالطريقة عينها، بعض الكائنات التي هي أكبر شأناً ممّا نحن عليه تجاه القطعان في أريافنا أو العصافير في سماواتنا. تخيلت ذات يوم ـ كان الأمر بمثابة تخمين في حلم أكثر ممّا هو اقتناع حقيقي ـ أنه يمكن للحياة، وبقوة، أن تكون قانون كلّ شيء وبأن الموت هو دائماً إشارة عن تدخل خارجي، وبأننا لن نمت إلا من جراء موت عنيف. بعض الموت، وبوضوح هو موت عنيف، وغالباً ما يكون موتا نحن مَن نستثيره؛ ثمة نوع آخر، نسميه الموت الطبيعي، هو أيضاً موت عنيف، إلا أنه يحدث عبر تدخل كائنات لا يمكن

=«A free Enquiry into the Nature and Origin of Evil»، الذي يُعلّق بيسوا عليه في هذا المقطع كما في قصيدة تعود إلى العام ١٩٣٤ ويمكن نسبها إلى أحد بدلائه ألفارو دو كامبوش.

مكتبة الفكر الجديد

تمييزها في أحاسيسنا. كذلك نرى أمماً، في حالة انحدار كامل، لا تندثر إلا من جراء ضربات اجتياحها الخارجي العنيفة، كذلك هي حيواتنا أيضاً لا تنتهي إلا بهذه الطريقة المماثلة. الانتحار بدوره ـ وأتابع هنا خيط حلم يقظتي المنطقي ـ يمكن له أن ينصاع إلى دافع خارجي؛ ما من حياة تعطي نفسها الموت بطريقة فجائية، لكنها في الانتحار، تقرر موتها من الخارج، مستعملة نفسها بذلك. كنت لتناسيت كلّ هذه التخمينات، ومن دون أي مجهود، إن لم تكن قد أنقذت حياتي يوما من الانتحار، من زمن بعيد ـ تقريباً بعد فترة قصيرة من نهاية دراستي الجامعية(*).

في تلك الفترة، شهدت حياتي نوبة كآبة، بيد أنّ هناك إمكانية مبهمة كي تكون فكرتي صائبة (ويمكن لها أن تكون كذلك كما أي فكرة أخرى)، فإن كانت صحيحة، فقد

(*) في الواقع، لم يذهب بيسوا سوى سنة واحدة إلى جامعة لشبونة؛ بيد أن الحقبة التي يشير إليها هنا، تتوافق تقريباً مع الفترة التي انتحر فيها صديقه، الشاعر الكبير سا ـ كارنييرو وهو في السادسة والعشرين من عمره، إذ مرّ بيسوا، بدوره، في تلك الحقبة، بأزمة نفسية كبيرة. (لمزيد من المعلومات، راجع «كتاب القلق» الترجمة الفرنسية الكاملة، الطبعة الثانية، ص ٢١، منشورات «كريستيان بورغوا»). من جهته، يجد مترجم الكتاب (إلى الفرنسية)، ريتشارد زينيت، أن المقصود بالانتحار هنا، هو انتحار أنتيرو دو كوينتال، وبخاصة أن ظله يهيمن بقوة على صفحات «تربية الرواقي».

مكتبة الفكر الجديد

تصرف نفوري مثل خادم بسيط، كما لو بالإنابة؛ في الواقع، يمنعني، ذلك كله (ولن أعرف القول إن كان ذلك مفيدا أم لا) من إتمام عمل وجد نفسه ـ في نهاية الأمر ـ مؤجلا إلى يومنا هذا.

لم أستطع يوماً(*) التصديق أنه بإمكاننا، أنا وأي أحد غيري، أن نحظى بإمكانية تقديم علاج ما، حقيقي أو عميق، لعذابات الإنسان، أو أن نشفيه على أقل تقدير. بيد أنني، مع ذلك، لم أتوقف بتاتا عن التفكير في ذلك؛ إن أصغر كآبة إنسانية ـ أو على الأقل إن أدنى تخيّل لهذا، ولو للحظة واحدة ـ كانت تسبب لي الكرب دائماً كما التشوش، ما منعني من التركيز ومن التشاوف. على يقيني بأن كلّ علاج للروح هو علاج تافه بشكل كامل، وعلى العكس من ذلك، عليه أن يحملني إلى قمم من اللامبالاة، حيث من علوها، نجد أن التحركات الأرضية ستكون مخفية بحجاب هذا اليقين السديمي. بالرغم من كلّ شيء، ومهما كان عليه الفكر من قدرة كبيرة، إلا أنه لا يمكنه فعل أي شيء تجاه ثورة العاطفة. من المستحيل علينا ان لا نحس، مثلما من المستحيل أن لا نمشي. اشهد إذا، وقد شهدت دوما (منذ أن

(*) هذا النص، الذي ينتهي لاحقاً بكلمة جيوش الكون، هو النص الوحيد المؤرخ في هذا الكتاب: ٢٧ آذار (مارس) ١٩٣٠.

مكتبة الفكر الجديد

شعرت ببرهان العواطف الأنبل، على الأقل منذ أن أتذكر ذلك) على الألم والجور والبؤس الذي يهيمن في العالم، شهدت ذلك كما لو أني شخص مشلول يرى غرق أحدهم حيث لا يمكن لأي شخص ـ حتى وإن كان قادراً ـ أن ينقذه. لقد أصبح ألم الآخرين في داخلي أكثر من ألم وحيد ومتفرد: أصبح ذاك الألم الذي يُرى، الذي يُرى بأنه غير قابل للإصلاح، ففي النهاية، حين وجدت أنه غير قابل للإصلاح، خفّ عندي هذا النبل العديم النفع للرغبة في التحرك كي أجد له حلا. على الدوام، شكل غياب اندفاعي في نهاية المطاف، مصدر وأساس كلّ آلامي: عدم معرفة كيفية التفكير قبلا، عدم معرفة تسليم نفسي، عدم معرفة اتخاذ قرار، فقط مجرد اتخاذ قرار ـ عبر القرار لا عبر الذكاء ـ كما حمار بوريدان الذي نفق على المنصّف الرياضي محاولا فصل المياه عن العاطفة والقش عن المجهود، في حين أنه، لو لم يكن يفكر، كان يمكن له أن يموت بالتأكيد، لكن ليس من الجوع أو العطش.

كل ما أفكر فيه أو أختبره، يتحول إلى قصور ذاتي، بطريقة لا يمكن تجنبها، يتحول إلى أساليب متنوعة. الفكر الذي يشكل، عند آخرين، بوصلة الحدث، يصبح عندي مجهره، ليجعلني أرى عوالم للاجتياز، هنا، حيث كانت

مكتبة الفكر الجديد

تكفي خطوة صغيرة، كما لو أن منطق زينون(*) ـ (الذي برهن أنه لا يمكن اجتياز الفضاء بكونه يقبل القسمة بطريقة غير نهائية لهذا فهو لا نهائي) ـ كان بمثابة مخدر غريب سممّوا به جهازي العقلي. أما فيما يخص المشاعر ـ التي تنزلق عند آخرين داخل الإرادة، مثلما تنزلق الكف داخل قفاز، أو كما ينزلق المعصم في غمد السيف ـ فقد شكلت عندي دوما طريقة أخرى للتفكير، طريقة تشبه بلا جدواها، نوبة غضب تجعلنا نرتجف لدرجة أنه لا يمكننا التحرك معها، نوع من فزع النشوة الذي ـ وكما الخوف المرعب ـ يترك الخائف مسمّراً بالأرض، لدرجة أن خوفه يتدافع للهرب.

تتلخص حياتي كلّها بمعركة خسرتها فوق الخرائط؛ حتى أن خوفي لم يبزغ يوما فوق ساحة المعركة، أو بالأحرى لم ينجح في أن يواجه على انفراد ربما ـ في غرفة عمليات رئيس الأركان ـ اقتناعه الحميم، بأنه ذاهب إلى الهزيمة. لم يتجرأ أحد على وضع خطة، لأنها في جميع الأحوال ستكون خطة غير مكتملة؛ لم يجرؤ أحد على جعلها مكتملة، وإن كان لا يمكن أن تصبح عليه، هكذا، في الواقع، إذ أن الاقتناع بأنها

(*) زينون الرواقي، فيلسوف إغريقي ما قبل سقراطي (٤٩٠ ـ ٤٣٠، قبل الميلاد).

مكتبة الفكر الجديد

لن تكون (محكمة) أبداً، هشّم الإرادة التي كانت ستدفع بنا إلى تجريبها في جميع الأحوال، برغم كونها غير مكتملة. لم يخطر على بالي مطلقاً، أن هذه الخطة وبرغم عدم اكتمالها، كان يمكن لها أن تكون أكثر اكتمالاً من خطة العدو. مثلما لم يخطر على بالي مطلقاً أن عدوي الحقيقي ـ الذي ينتصر عليّ منذ وجود الله نفسه ـ كانت، بدقة، هذه الفكرة عن الكمال التي تسير ضدي، وعلى رأس جميع فيالق العالم التي تشكل الطليعة المأساوية لجميع جيوش الكون.

... حين، انهزمت في باريس بمبارزتي مع ماركيز بلومبيير.

اعتبر المبارزة، بطبيعة الحال، بمثابة عبث. ومع ذلك، أجد أنني وكما عشت متقبلاً دائماً ـ كمثل أي واحد منّا ـ أكان بملء إرادتي أم لا، الأعراف الاجتماعية مثلما عشت متمتعا، من جرّاء الجاه العائد للقبي، بالمزايا التي يمنحني إياها ذلك ـ كان من [غير اللائق(*)] أن أهرب من ممارسة أي من الأمرين(١) بسبب أن واحدا منهما قد يعرضني للمخاطر.

(*) في المخطوط الأصلي، تبدو الكلمة غير واضحة وغير مقروءة، لهذا نجد أن اقتراح كلمة «غير اللائق» يبدو مناسباً مثلما يظهر لنا سياق المقطع وبخاصة السطر الأخير منه، الذي ينتهي بجملة «من اللائق أن أفعل ذلك».

(١) المقصود، المبارزة كما الاضطلاع بلقب البارون.

مكتبة الفكر الجديد

تراءى لي المجرد دوماً أكثر حضوراً من الملموس. أذكر أنني في طفولتي، لم أكن أخشى أحداً، ولا حتى البهائم؛ بيد أنني كنت أشعر بالخوف، وكيف لا! من الغرف المعتمة... أذكر بأن هذا التفرد الظاهر كان يسبب بانحراف النفسية البسيطة التي تلفني.

الأمر نفسه، وبخلاف الأناس العاديين، شعرت دائماً بالخوف من الموت أكثر من أن أموت. احتقرت دائماً، ولا زلت أحتقر الألم. أفردت دوماً الكثير من القيمة لوعي أكثر ممّا أفردت لأحاسيس جسدي الرائعة. خلال العملية الجراحية الوحيدة التي تعرضت لها في حياتي (بتر ساقي اليسرى)، رفضت أن يتم تخديري. لم أرض إلا بتخدير موضعي(*).

وإن كنت سائراً اليوم صوب الموت الإرادي، فلأن] ... [المحكوم أصبح مستحيلاً. ليس الألم الأخلاقي الذي يدفعني إلى قتل نفسي؛ بل الفراغ الأخلاقي الذي يشكل أساس هذا الألم.

حالتي النفسية هي تلك الحالة الموجودة في أسس الروحانيين الكبار، في التنازلات المتعالية؛ بيد أن قاعدة

(*) ثمة تنويعان آخران يضعهما بيسوا لهذه الجملة، على هامش المتن: أ ـ «حتى أنني رفضت التخدير الموضعي»، ب ـ «لكنت قبلت بالتخدير الموضعي فيما لو كانوا يمارسونه في تلك الحقبة».

مكتبة الفكر الجديد

هؤلاء (الروحانيين) تكمن في الإيمان الذي لا أملكه. هو بالضبط، غياب الإيمان (أو بالأحرى عدم استطاعتي أو عدم رغبتي بامتلاك هذا الإيمان) الذي يشكل أساس هذا الفراغ الخاص لوعيي بالعالم.

بيد أن فكرة، ووفق كلّ احتمال، أنني جُرحت لا قُتلت، أغلقت فمي لكي لا أتفوه بالتعليق على الفكرة التي ستأتي. لم أخشَ الألم أبداً، بل العكس من ذلك، كنت أحتقره، أو بالأحرى، لكي أقول ذلك بشكل أفضل، كنت أحتقر الخوف الذي يمكن أن يحدث لنا من جراء هذا الأمر. هذا واحد من التصرفات التي أظهرت فيها، بوضوح، طيشي [؟] تجاه التعليق على الأشياء بشكل مجرد.

من الغريب فعلا، في هذه المبارزة، أن ما شغلني بشكل أكبر ـ وهذا الانشغال قام بطرد كلّ الانشغالات الأخرى ـ كان قدرتي على أن «أُهزم» وعلى أن أجد نفسي، في حقل المبارزة، أقل شأنا من خصمي. لقد عرفت فيّ دائماً ـ وقد بدا ذلك نوعاً من خصال أقل شأناً لكن لا يمكن تجاوزها مطلقا ـ القدرة على عدم معرفة كيفية أن أخسر؛ كما أن الخوف من عدم معرفة كيفية إخفاء عاطفتي، العائدة للحزن والغضب، والتي أبقتني دوماً بعيداً عن الألعاب والمسابقات ـ

مكتبة الفكر الجديد

أبقتني بعيداً عن كلّ ما يتطلب مني مقارنة نفسي بشخص آخر. أعترف بأن هذا الخوف قد دفعني تقريباً إلى الهرب من المبارزة، إن كان لذلك أن يكون ممكناً ـ أو من المحتشم ـ القيام به.

مكتبة الفكر الجديد

(إغواء ماريا أديلاييد)

يُظهر أولئك الناس (الذين لا يمكن السيطرة عليهم) جوانب غير مستكشفة من المشاعر الإنسانية، ويظهرون للعلن مظاهر من الحساسية التي تحمل حصة من الظلمات، على الرغم من التماس الجسدي.

(الأسباب التي دفعت البارون إلى عدم إغواء شابات أخريات)

لقد أغويت بعض الأخريات لاحقاً(*)، وأحالني ذلك الأمر إلى شخص سخيف بنظري، بدون ولا أي عذر ولا أي [...].

ما من خادمة كانت تعمل في المنزل لم يكن باستطاعتي إغوائها. بيد أن بعضهن كنّ كبيرات جداً أو ـ وإن لم يكن كذلك ـ كنّ يتراءين لي كذلك بسبب حيويتهن الطافحة،

(*) من الصعب جداً قراءة بداية الجملة في المخطوط الأصلي.

مكتبة الفكر الجديد

وكنت أظهر أمامهن خجلاً متسرعاً، ضاغطاً بطريقة من الطرق [؟]: حتى في الحلم، لم أكن أستطيع تخيلني وأنا أغويهن. أما بعض الأخريات، فكنّ صغيرات، هشّات، وهذا ما كان يسبب لي الألم. قسم آخر منهن، كنّ قبيحات. وهكذا مضيت على جانب خصوصية الحب، تقريباً مثلما مضيت بالطريقة عينها على جانب عمومية الحياة.

الخوف من أذية الآخرين، حسيّة نتائج الوعي الحاد بالوجود الواقعي للأرواح الأخرى، كلّ هذه الأمور سدّت أمامي منافذ الحياة، وأسأل نفسي اليوم بأي طريقة كانت مفيدة، بالنسبة إلى الآخرين كما بالنسبة إليّ شخصياً. فالفتيات الشابات اللواتي لم أقم بإغوائهن، قام آخرون بإغوائهن، إذ كان يتوجب عليهن التعرض لذلك، في يوم من الأيام، من قبل رجل ما. إذ في هذه اللحظة التي عرفت فيها التردد، لم يعرفها الآخرون أبداً. لقد شاهدت ما فعلته بنفسي، رأيت ما كان الأمر عليه، وفي نهاية الأمر ـ سألت نفسي: هل يستحق الأمر كلّ هذا العذاب في التفكير إن شكل ذلك السبب الأكبر في أن أشعر بالألم؟

التردد هو موت الفعل. أن تشغل بالك بحساسية الآخر، معناه أن لا تقوم بأي فعل. ما من فعل، مهما كان صغيراً ـ وهذا أمر حقيقي أكثر من كونه أمراً مهماً ـ إلا وسيجرح

مكتبة الفكر الجديد

روحاً أخرى، إلا وسيعذب شخصاً آخر، إلا وسيحتوي على عناصر ستجعلنا ـ إن كنّا نملك قلباً ـ نشعر بالندم. غالباً ما اعتقدت، أن فلسفة المتنسك الحقيقية، تفرض، زيادة، تجنب أي فعل عدواني، انطلاقاً من وجوده البسيط، أكثر ممّا يشترطه في ممارسة إرادته الاختيارية في الوحدة.

الأشياء التي كانت تبدو لي تافهة والتي تجنبت في تطبيق إرادتي عليها، كنت رأيتها تتحقق من قبل آخرين، لأستنتج حينذاك أنها لم تكن سوى أمور عادية جداً.

سرّ اللاوعي عند الإنسان الطبيعي(*): أن يعيش بحشرية الجانب الرومنسي للأشياء، وأن يعيش رومنسياً الجانب الفاضح للحياة.

لا تعلّم شيئاً، إذ لا يزال أمامك كلّ شيء لتتعلمه.

حين يكون الحلم كثيفاً جداً أو مألوفاً جداً، فإنه يصبح واقعاً جديداً، ويستبدّ كثيراً كما الآخر: يتوقف عن أن يكون ملجأ. الجيوش المحلومة ينتهي بها الأمر بالانحراف عن مسارها، كتلك التي تنهار وتتفكك في معارك العالم وحروبه.

الحلم، حلم اليقظة ـ كلّ ضعف الروح هذا، الجدير بحفريات الموضة ذات الغبطة، بأمرائها ومعشوقيها

(*) ثمة تنويع آخر للكلمة: العادي.

مكتبة الفكر الجديد

ومشاهيرها ـ هذا الميل [...] تراءى لي دوماً أمراً خسيساً وكريهاً.

طردت الحلم، كأنه رذيلة طالب مدرسة أو رذيلة مجنون. لكن، وفي الوقت عينه، طردت الواقع، أو بالأحرى، هو الواقع من طردني، ولا أعرف لِمَ ـ ربما بسبب عدم الكفاءة أو التعاسة أو عدم الفهم. لم أكن جيداً في التمتع بأي من الطريقتين الممكنتين ـ ولا من المتعة الواقعية، ولا من المتعة المتخيلة(*).

لا أشكو أبداً لا من الذين يحيطون بي ولا من الذين أحاطوني. ما من شخص سبّب لي أقل ألم، ولا بأي معنى، ولا بأي شكل. عوملت بلطف دوماً، وإن من على بعد. فهمت بسرعة قصوى أن هذه المسافة كانت في داخلي، وأنها صادرة عني. لهذا يمكنني أن أقول، بدون أن أمدح نفسي، بأنني كنت مُحتَرَماً على الدوام. لكن محبوبا أو مُعَزاً، أبداً. اعترف اليوم أنه لم أتمكن من أكون كذلك بتاتاً. امتلكت صفات كبيرة، كان لديّ عواطف مكثفة، كان عندي [...] ـ لكنني لم أحظ بذاك الذي يسمى الحب.

... أولئك الذين ينتمون إلى نفس العرق الروحاني الذي

(*) ثمة تنويع: «لا من قبلة الواقع، ولا من الضمة/ نظرة المتخيل.

مكتبة الفكر الجديد

أنتمي إليه: روسو، شاتوبريان، سيناكور، أميل. بيد أن روسو شقلب العالم، شاتوبريان [...]، أميل ترك، على الأقل، يوميات حميمة. أنا ما زلت بعد المثل الأكثر اكتمالاً عن المرض الذي نعاني منه: في الواقع، لم أترك خلفي أي شيء.

لم أشعر مطلقاً بالندم من الماضي، لأنني لم أمتلك يوماً شيئاً يمكن لي أن أندم عليه، فقد كنت عقلانياً في مشاعري. وبما أنني لم أفعل شيئاً في حياتي، فأنا لا أملك شيئاً يمكن لي أن أتذكره بندم: حدث أن حصلت على بعض الآمال، إذ أن غير الموجود يمكن له أن يحصل على كلّ شيء ذات يوم: لم يعد لدي اليوم أي أمل، لأنني لا أرى أي سبب في أن يكون المستقبل مختلفاً عن الماضي. يندم البعض على الماضي على سبب بسيط: لأنه مضى، فتراهم يذهبون للحكم بأن الشر الذي تعرضوا له بالأمس كان خيراً، وذلك لبساطة أنه انوجد، وقد انوجد معه، ما كنّا عليه حينذاك. لم أستطع أبداً إعطاء أي أهمية إلى تجريدية الزمن الصافي، لدرجة أن أبكي على ماضيّ لمجرد أنه لا يمكن لي أن أعيشه من جديد، أو لأنني أكثر شباباً ممّا أنا عليه الآن. يمكن لأي كان، أن يبكي على ماضيه، حتى ذاك الشخص التافه، يمكن له القيام بذلك؛ لكنني، أحتقر ذاك الذي هو العالم بأسره.

مكتبة الفكر الجديد

أبداً، لم أعرف الندم مطلقاً. ما من حقبة مرت في حياتي لا أتذكرها بدون استياء. طيلة حياتي، كنت أنا نفسي ـ ذاك الذي خسر اللعبة، أو ذاك الذي لم يعرف أن يستحق هذا الشيء القليل الذي عليه النصر.

بالتأكيد، عرفت بعض الآمال، لأن كلّ شيء هو إما أمل وإما موت.

المجهود، من يوم إلى يوم، يبدو صعباً جداً، الأمل، من يوم إلى آخر، يبدو أكثر بطئاً في أن يولد من جديد، أما المسافة، بين ما أنا عليه وبين ما ظننت أنه يمكن لي أن أكون عليه، تبدو، من يوم إلى آخر، موسومة أكثر في هذا الليل من يأسي القاسي.

المفهوم الأول الواضح لعدم اهتمامي الرهيب بنفسي، والذي كنت أعتبره فيما مضى من أعمق أعماقي، ظهر لي في اليوم الذي كنت فيه بعيداً عن منزلي، حيث سمعت رنين جرس الإنذار وكأنه كان صادراً من محلتي. ظننت أن النار يمكن أن تكون مشتعلة في منزلي ـ مع العلم أن الأمر لم يكن كذلك ـ فتيقنت، مع العلم أنني في الماضي لكان الخوف اجتاحني مخافة أن أفقد مخطوطاتي كلها، تيقنت، وباندهاش مزدوج، أن إمكانية أن تكون النيران قضت على المنزل كله، بأنه أمر تركني شخصاً غير مبال، وحتى أنه

مكتبة الفكر الجديد

جعلني سعيداً لمجرد فكرة أن مخطوطاتي قد أتلفت، إذ ستكون حياتي عندها قد أصبحت مبسطة بعظمة. في الماضي، كان لفقدان مخطوطاتي ـ كتاباتي المقطعية، المكتوبة بعناية فائقة، على مدار حياتي ـ أن يقودني إلى الجنون رأساً؛ أما الآن، فأنا أعتبر الأمر مجرد حادث بسيط في كينونتي، لا كضربة قاصمة مميتة كان يمكن لها ـ عبر هدمها لهذه التظاهرات ـ أن تبيد شخصيتي.

بدأت أفهم عندها كم أنه، في نهاية المطاف، يمكن لنا أن نتعب من كلّ جهدنا المستمر لكي نصل إلى الكمال المتعذر الوصول إليه؛ فهمت الروحانيين الكبار والمتزهدين الكبار الذين اعترفوا داخل أرواحهم بتفاهة الحياة. أي شيء مني، كانت تحوي قصاصات الورق هذه؟ فيما مضى، لكنت أجبت «على كلّ شيء»؛ أما اليوم، لقلت «لا شيء»، أو ربما «قليلاً»، أو حتى «شيئاً غريباً»(*).

لقد أصبحت موضوعياً تجاه نفسي. بيد أنه لا يمكنني أن أميّز ـ إن يمكن لي القيام بذلك ـ ما بين أن أكون وجدت نفسي، أم أنني أضعتها.

(*) يمكن لنا أن نفهم الكلمة بمعناها المزدوج، حين يقول «شيئاً غريباً»، أي من الغرابة أو من الغريب، بمعنى «أنا غريب عن نفسي»، وهذا من الموضوعات المفضلة عند بيسوا، التي لطالما اختار الكتابة عنها طواعية.

مكتبة الفكر الجديد

هل يمكن أن تشتعل النيران في منزلي؟ هل من خطر في رؤية جميع مخطوطاتي تحترق، وهي التي تشكل التعبير الحرفي عن حياتي بأسرها؟ فيما مضى، مجرد هذه الفكرة، كانت تسمّرني بخوف لا اسم له ـ وقد تيقنت فجأة (ولا أعرف إن كنت شعرت حينها بالدهشة أو بالخوف) بأن الأمر سيّان عندي، إن احترقت أم لم تحترق. أي نبع ـ وهو نبع سرّي لكنه خاص بي جداً ـ قد جفّ في روحي؟

فهمت حينذاك أن كلّ هذه السنين من التعب العقيم قد حملت إلى أعمق أعماق روحي تعباً عقيماً وعميقاً أيضاً. غفوت، ومعي كلّ امتيازات روحي ـ الرغبات التي تحلم عالياً جداً، العواطف التي تحلم بقوة، القلق الذي بذلك كله، بطريقة معكوسة.

... ثمة شيء من الصعب تحديده، فقط على أنه مثل غثيان فيزيائي للحياة.

التفكير كما لو أنك روحاني، العمل كما لو أنك مادي. ليست هذه عقيدة عبثية: بل إنها، في نهاية المطاف، العقيدة الآنية للإنسانية بأسرها.

ما هي إذا حياة الإنسانية، إن لم تكن تطوراً دينياً يبقى بدون تأثير على الحياة اليومية؟

الإنسانية مشدودة صوب المثالية، وكلما كانت هذه

مكتبة الفكر الجديد

المثالية مرتفعة ومضادة للإنسانية، كلما شدّت صوبها ـ هذا إن كانت الإنسانية تتبع طريق التقدم ـ ممارسة حياة متحضرة، تتوزع ـ بدءاً من تلك اللحظة ـ من شعب إلى شعب، من عصر إلى آخر، من حضارة إلى حضارة.

تفتح الحضارة المتحضرة ذراعيها واسعاً لديانة تبشر بالعفة، تبشر بالعدالة، وتبشر بالسلام. لكن الإنسانية الطبيعية المخترعة سابقاً، تخاصم وتعارك بدون توقف؛ وستفعل ذلك إلى ما لا نهاية.

في عصر معين، وفي مجتمع معين، يتصرف الإنسان الملحد، في الميدان الاجتماعي بأسره، مثلما يتصرف الإنسان المؤمن؛ ومع ذلك، يبدو أن عليهما أن لا يتصرفا، بشكل متواز، إلا في بعض الأشياء القليلة. ما من فرضية، ما من نظرية، ستلوث الهواء الذي نتنشقه. يحيلنا علم الفلك إلى حياة خاصة، تماما مثل الأحلام. علم الفلك، وأميل إلى الاعتقاد بذلك، هو ببساطة الاسم الذي نطلقه على شكل وُلِدَ من مخيلتنا[1]؛ الرواية كما البحث الفلكي يشكلان روايتين ذات موضوعين مختلفين، يتباعدان بشكل أقلّ بينهما عمّا يمكن أن يباعد مثلاً ما بين رواية فروسية ورواية أخلاقية، أو ما بين رواية بوليسية ورواية غرامية.

---

(١) يذكر أن بيسوا كان يهتم بعلم الفلك بالقدر الذي كان يهتم فيه بكل ما هو «غامض».

مكتبة الفكر الجديد

ومع ذلك، حين أقرأ روسو أو شاتوبريان [...]، أشعر جيداً، وبرعب، أن كلّ عبادتي للموضوعية، للواقع، لا تجردني من هويتي المرعبة والمادية معها. عند بعض أولئك الكتّاب، ثمة صفحات تملأني بالكرب(*): تبدو وكأنها مكتوبة، لن أقُل من قبلي، بل عبر نوع من العبثية التي توافقني بشكل كامل، من قبل شقيق توأم لم أرزق به، شخص يختلف في الأمر نفسه عني.

على الرغم من كلّ شيء، لا أكنّ إعجاباً بالإغريق(**). لقد تركوا عندي دائماً انطباعاً، لن أقل بأنه انطباع تزييف عدائي، بل انطباع بساطة مفرطة. إنهم أطفال مقارنة بنا، بالرغم من كلّ سحرهم، بالتأكيد، ولكن أيضاً بكل عدم اكتمال الأطفال. حتى تفوقهم هو تفوق يتيح للأطفال ـ مع الانتباه للفروقات بالطبع [...] ـ في أن يتغلبوا على الراشدين. في تناميهم، كسبوا من خلال تعقد المشكلة، وهذا ما ليس في صالحهم بشكل كامل. إذ أنهم في اكتسابها، فقدوا عفوية

(*) ثمة تنويع آخر للكلمة مكتوب باللغة الفرنسية: «تناديني بالكرب»، كانت رغبة بيسوا أن يقوم بترجمة نصوص بارون تيف إلى الفرنسية والإنكليزية.

(**) كان بيسوا «يبشر» بنوع من «الإلحاد الوثني»، وهو مستوحى بشكل كبير من الإغريق، لكنه لم يكن يستبعد منه، وكما رأينا، لا الإيمان باله واحد كوني، ولا بالغموض الذي يلفه. الدليل على ذلك نصوص بديله «كايرو».

مكتبة الفكر الجديد

العاطفة والإحساس الخاص بالطفل ـ هذه العفوية التي لم يحظ بها أحد، بالدرجة عينها، إلا الإغريق: فقدوا الأنانية البسيطة والمباشرة، الخيال الندي والإنساني، تنقية الوقائع الصارمة ـ أي كلّ ما يميز الإغريق في هذه الحياة، الفن والفكر. تبدو بعض مساهمات الإغريق أشبه بألعاب الأطفال، التي اخترعوها بأنفسهم، كمثل الانتخاب بالقرعة، أو التشاور الديمقراطي عند الجنود، الذين يقفون على الدرجة عينها مع قادتهم، لغاية أن يصلوا حتى إلى الأسئلة المتعلقة بالحملات العسكرية.

وأن أفكر أنه كان باستطاعتي أن أعتبر عملاً أدبياً هذه الحفنة غير المتناسقة من الأشياء التي لم تكن بعد قد كُتبت! أن أفكر، في هذه اللحظة الحاسمة، بأنني اعتقدت أنني أملك القوة في تنظيم كلّ هذه العناصر في عمل أدبي مكتمل ومرئي في نهاية المطاف! إن كانت سلطة الروح التنظيمية تكفي لكي يتحقق العمل الأدبي، إن كان يمكن للتنظيم أن يولد من كثافة العاطفة، مثلما تفعله قصيدة قصيرة أو بحث مختصر، لكان عملي الأدبي، قد تحقق، من دون شك، إذ أنه كان عندها قد صنع نفسه بنفسه، في روحي، أكثر ممّا لو كنت أنا من أبدعه، أنا، بصفتي هذا العامل المحدِّد.

يمكنني، وأعرف ذلك جيداً، كيف أواجه احتمالات

مكتبة الفكر الجديد

إرادتي، إذ أني غير جدير في اختيار وتحويل ـ إلى أبحاث مختصرة ـ هذه المقاطع المبكرة لعمل كبير لم يتحقق مطلقاً: يمكنني تنظيم عدة دواوين من النصوص، إن كانت كلها تملك بصمة واحدة لوحدة كبيرة؛ يمكنني، مع ذلك، اختيار من بين الجُمل المتعددة، التي لا تزال مبعثرة في دفاتر ملاحظاتي، طريقة لتشكيل ما لا يزيد عن أن يكون كتاب أفكار، لكنه لن يبدو مصطنعاً ولن يبدو خالياً ممّا هو جديد.

بيد أن اعتزازي بنفسي لم يسمح لي أبداً في أن أبقى أدنى من احتمالات ذكائي. لم أستطع مطلقاً أن أتقبل العبارة المتوسطة، ولا أي عمل أدنى من شخصيتي بأسرها ومن رغبتي(*) كلها. لو كنت وجدت في ذكائي عدم قدرة ما في تحقيق عمل تركيبي، لكنت وضعت حدّاً لاعتزازي بنفسي، ولاعتبرته نوعاً من الجنون. إلا أن هذا النقصان لم يكن مطلقاً صنيع ذكائي، الجدير بامتياز بالقيام بخلاصات كبيرة وبأنساق فاعلة. لقد توقف شقائي عند ضعف إرادتي أمام هذا المجهود الجبّار الذي يفترضه هذا التطلب في الشمولية.

ربما، وإذا ما اتبعنا هذا المعيار، لما تحقق أي عمل أدبي. أعترف بذلك؛ أعترف بأنه فيما لو كانت كلّ الأرواح

(*) ثمة تنويع في الكلمة: أدنى من طموحي بأكمله.

مكتبة الفكر الجديد

الكبيرة تملك هذه العظمة المترددة في عدم الرغبة في تحقيق شيء سوى الكمال ـ أو على العكس من ذلك (إذ لنترك جانباً هذه الفرضية المستحيلة)، عدم إتمام سوى عمل واحد مماثل بشكل مطلق لشمولية شخصية مؤلفها ـ لكانوا تخلّوا عن مشاريعهم مثلما تخلّيت أنا عن مشروعي.

لا يمكننا الانحياز إلى الحياة الحقيقية للعالم إلا حين نمتلك إرادة أكثر ممّا نمتلك الذكاء، أو أن نمتلك نبضاً أكثر ممّا نمتلك منطقاً. «Disjecta membra»، قال كارليل، «هذا ما يتبقى من شاعر أو من أي إنسان». إلا أن ثمة كبرياء، أكثف من ذاك الذي قتلني، والذي سيقتلني، لا يمكنه احتمال أن يتمّ عرض، أمام العار المفترض في العصور المقبلة، هذا الجسد المشوه وغير المحدد لعدم الكمال الذي لا يمكن تجنبه: عدم الكمال العائد للروح التي يسكن فيها والتي يحددها.

بين المتزهد والإنسان العادي، لا أعرف، وفيما يخص ذاك الذي يمس كبرياء الروح، أي ممارسة وسيطة أو غاية وسيطة. إن استعملنا ذلك، فلنستعمله؛ إن تخلينا عن ذلك، فلنتخلى. لنستعمل ذلك مع كلّ فجاجة المستعمل؛ لنتخلى عن ذلك مع كلّ التخلي المطلق. لنتخلى من دون دموع، من دون عزاء داخلي؛ لنكن أسياد، وبكل السبل، قوة الرفض هذه. أن نحتقر أنفسنا، ليكن ذلك، لكن لنحتقر بعزّة نفس.

مكتبة الفكر الجديد

أن يبكي أمام العالم ـ وأجمل سيكون النشيد، وبشكل أوسع سينفتح العالم أمامه، وسيكون عاره معروضا على الملأ ـ هي عزة النفس الأخيرة التي يستطيع ارتكابها، الإنسان المهزوم، تجاه حياته الحميمية، الإنسان الذي لم يعرف كيف يحتفظ بسيفه من أجل معركته الأخيرة كجندي. إننا جميعا جنود في كتيبة هذه الحياة الغريزية؛ يلزمنا أن نعيش وفق قانون المنطق، أو حتى من دون أي منطق. المتعة مفيدة للكلاب، العويل للنساء؛ لا يملك الرجل، من جهته، حيزاً مكتملاً(*)، غير قابل للتصرف، سوى الشرف أو الصمت. شعرت بذلك، بشكل أقوى من ذي قبل، في نيران المدفأة التي انتهت فيها مخطوطاتي دوماً.

ثمة شيء مرعب، وأسخف ممّا هو مرعب، في عادات الضعفاء الذين يحولون إلى مآسي كونية، هذه الكوميديات الحزينة العائدة لمآسيهم الشخصية.

منعني الوعي بهذا الأمر دوماً ـ وأعترف بأنه لم يكن بدون أي جور ـ من أن أجد عاطفة متكاملة من قصائد المتشائمين الكبار. ازداد حرجي حين تعرفت على سيرهم. لقد أصبح، بالنسبة إلي، أكبر ثلاثة شعراء متشائمين في القرن المنصرم ـ ليوباردي وفيني وأنتيرو ـ أصبحوا لا يطاقون. القاعد

(*) تنويع: حميمي.

مكتبة الفكر الجديد

الجنسية لكل هذا التشاؤم، تركت عندي ـ ما إن التقيتها في أعمالهم وما إن تأكدت منها بعد قراءتي لحيواتهم ـ نوعاً من غثيان الذكاء. أعترف أن ذاك الأمر قد يسبب مأساة ربما بالنسبة إلى أي إنسان، كما بالنسبة إلى من يملكون حساسية حيّة كما عند هؤلاء الشعراء الثلاثة. فقضية أن يكون المرء محروماً ـ مهما كان السبب ـ من العلاقات الجنسية، مثلما كان عليه الحال عند ليوباردي وأنتيرو أو أن تكون لديه العديد من هذه العلاقات وأن تكون مرضية إلى الدرجة التي رغب فيها كما هي حالة فيني. تشكل هذه الأمور، نبض الحياة الخاصة، لهذا لا يمكنها مثلما لا يتوجب عليها أن تعرض نفسها إعلانياً في الشعر الذي نكتبه؛ إنها تخص الحياة الشخصية لكل واحد منّا لهذا ـ وبالنتيجة ـ ليس عليها أن تنتقل إلى عامية العمل الأدبي، لأن لا تخصيص العلاقات الجنسية، ولا عدم الاكتفاء الذي نجده ممّا نملكه، يمكن أن يشكل شيئاً مثالياً أو شيئاً منتشراً بشكل واسع في التجربة الإنسانية.

لو أن هؤلاء الشعراء أنشدوا بطريقة مباشرة هذه المتاعب عبر نوع أدنى ـ لأنهم أدنى مستوى في الواقع، وثمة استعمالات شعرية نقوم بها ـ لو عرّوا أرواحهم، عرياً حقيقياً لا أن يرتدوا «المايوهات»(*) المحشوة باللحم، لاستطاع

(*) بالفرنسية في النص الأصلي.

مكتبة الفكر الجديد

حينئذ عنف سبب عذاباتهم أن ينتزع الصرخات التي لا تزال مخضّبة بعزة النفس، ولألغت بطريقة ما ـ من دون اللجوء إلى التنكر ـ السخف الاجتماعي الذي ـ أكان محقاً أما لا ـ يلوث حقارة العواطف التافهة. إن كان إنسان جبانا، يمكنه إما أن لا يقول شيئاً ـ وهذا أفضل ـ وإما أن يعلن «إنني جبان»، مستعملاً في ذلك الكلمة الصائبة والفجة. في إحدى الحالات، يكون لهذا الإنسان أفضلية عزة النفس، وفي الأخرى، حالة الصدق؛ في كلتا الحالتين، لن يقع في السخرية: فهو إما لم يقل شيئاً وبالتالي لا يملك شيئاً يدفعنا إلى الضحك عليه؛ وإما ليس لديه شيئاً يمكننا أن نكتشفه لأنه سبق وأن أفصح عنه بنفسه. بيد أن الإنسان الجبان الذي يسعى إلى برهنة أنه ليس جباناً أو الذي يسعى للتأكيد أن الجبن ظاهرة كونية، أو حتى أن يعترف بضعفه ـ لكن بطريقة مشتتة واستعارية، أي لا يخفي ولا يكشف ـ هذا الإنسان هو شخص سخيف بالنسبة إلى الرأي العام، ويتحسس من الذكاء. في هذه الخانة أضع الشعراء المتشائمين، مثلهم مثل كلّ الذين يحولون إلى شرور كونية الآلام الشخصية التي تعذبهم.

كيف يمكنني أن أعتبر بجدية وتعاطف أن إلحاد ليوباردي، حين أعرف أن إلحاده هذا يمكن له أن يشفى عبر

مكتبة الفكر الجديد

الجُماع؟ كيف يمكنني أن أحترم ـ وبشكل متفهم جداً وبإرادة طيبة ـ حلم اليقظة الأليم والمحزن عند أنتيرو، في حين أنني أعرف جيداً أن ذلك كله ينبثق من إحباط روح لم تعرف الطمأنينة ـ أكانت جسدية أم روحية، لا فرق؟ كيف يمكن لي أن أتأثر بتشاؤم دو فيني تجاه المرأة، عبر إلقائه المدهش والمتطلب، لقصيدة «غضب شمشون»، بينما أنا أعرف، وعبر إفراط القصيدة عينها، أن الرجل «أأحب قليلاً أم بشكل سيء سيشعر بعذاب قاس»، مثلما قال فاغيه بخصوصه ـ ليس هذا كله، سوى عرض احتفائي لما يسميه الشعب، من دون أي احتفالية، «ألم المخدوع»؟

كيف يمكن للمرء أن يبقى جديّاً أمام هذه الحجة، التي تشكل أساس عمل ليوباردي: «أنا خجول مع النساء، وبالتالي الله غير موجود»؟ كيف يمكن أن لا نرفض خلاصة أنتيرو: «أتألم لأني لم أحظ بامرأة جديرة بحب من أجلي، وبالتالي فإن الألم هو ألم كوني»؟ هل سأقبل بدون أي احتقار غير إرادي موقف دو فيني: «لم أُحَبّ مثلما كنت أرغب، وبالتالي فإن المرأة كائن شرير، ومرعب وخسيس، يتضاد مع نبل الإنسان وطيبته»؟ كم من المبادئ المطلقة، إذا الخاطئة؛ سخيفة، إذا غير جمالية. نادراً ما نجد عملاً، يثير ضحك الجمهور حين يمتلك هذا الضمان وهذه العزة بالنفس

مكتبة الفكر الجديد

المتكاملين. أو بالأحرى، تمتلك صفة تفرض نفسها على الحشود، حتى وإن كانت ـ هذه الحشود ـ لا تفهمها؛ أو ربما هي صفة لا يدركونها، على الرغم من أن هذه الحشود عينها لا تسخر أبداً، لسبب بسيط أنها لا تراها. الشعب لا يسخر أبداً من «نقد العقل المحض».

يتطلب كبرياء الذكاء أن يعترف بأنه محدود، كما أن الكون(*) موجود خارجه. الاعتراف ـ أأعجبنا ذلك أم لم يعجبنا ـ بأن القوانين الطبيعية لا تنثني لرغباتنا، بأن العالم موجود بشكل مستقل عن رغبتنا، بأن فتنتنا لا تثبت شيئاً فيما يخص حالة الكواكب الأخلاقية، أو ببساطة فيما يخص الناس الذين يمرون تحت شبابيكنا: ها هو الاستعمال الحقيقي للمنطق، ولعزة النفس التقليدية للروح.

من نافذتي، في هذه الساعة، حيث الموت وحده هو من يشدني وحيث أسرع إليه ـ هو الذي ليس «هو» حتى ـ وحين أنحني الحظ مجموعة فرحة من الفلاحين عائدين وهم يغنون، بطريقة شبه دينية، في هواء ما بعد الظهيرة هذه المطمئن. أعترف بأن حيواتهم مليئة بالبهجة. أعترف بذلك وأنا على باب القبر الذي سأفتحه بنفسي، وأعترف بذلك بهذا الفخر الأخير بمعرفة أنني اعترف. أي علاقة هناك إذا ما

(*) تنويع: الواقع.

مكتبة الفكر الجديد

بين حزني الشخصي، الذي يكبلني، وبين اخضرار الأشجار الكوني، أو بين الفرح الطبيعي لهذه العصبة من الصبيان والبنات؟ ما العلاقة إذا بين هذا الحزن الشتائي الذي أغرق فيه مع الربيع الذي يعرفه العالم، طبقاً للقوانين الطبيعية، حيث أن حركتها على مسار الكواكب، تدفع الورود اليوم إلى أن تزهر، وحيث أن حركتها عليّ تدعني أضع حدّا لحياتي؟

كم أنني أنحني أمامي، وأكثر من ذلك، أمام كلّ شيء وأمام الجميع، فإن قلت الآن إن الربيع حزين، بأن الورود تتألم، وأن الأنهر تنبجس بأنين، وبأن حتى أناشيد الفلاحين تخون الكرب والرغبات، فلِمَ إذا ذلك كله؟ في الواقع، إن ذاك بسبب أن ألفارو كويليو دو أثياد، الرابع عشر، بارون تيف، قد لاحظ بحزن، بأنه لا يستطيع أن يكتب الكتب التي يرغب فيها!

أخص نفسي بالمأساة التي هي مأساتي. أتعذب من ذلك، بيد أنني أتعذب وأنا أواجه نفسي، بدون أي ميتافيزيقيا، ولا علم اجتماع. أعترف أن الحياة هزمتني، ولكنها لم تصرعني(*).

(*) تنويع: (...) بدون علم اجتماع. سأدخل إلى القبر بصفتي منتحراً، ولكن ليس بصفتي [...] ـ ثمة احتمال كبير في أن تكون الكلمة الناقصة هي كلمة جبان.

مكتبة الفكر الجديد

هناك الكثير من المآسي التي يعرفها البشر ـ ربما كلنا، إذ ما أحصينا أيضاً المآسي العائدة للظروف. إلا أن دَين كلّ إنسان على نفسه، بصفته كائناً بشرياً، هو في أن لا يتحدث مطلقاً عن مأساته الشخصية؛ ودين كلّ واحد على نفسه، بصفته فناناً، هو إما أن يكن إنسان وأن لا يقل شيئاً، وإما أن يستخلص ـ بعظمةٍ وحزم ـ درساً كونياً.

لقد وصلت، كما يتراءى لي، إلى طمأنينة استعمال منطقي. ولهذا السبب أرغب في قتل نفسي(*).

محارب مستعبد ومرغم، هاكم سيفي الذي ـ إن كان صالحاً بعد ـ سيكون هزيمتي، وسيكون، إن رميته، نصري؛ أحيي عالياً القدر بهذه الحركة ما قبل الأخيرة ـ الحركة التي تسبق تلك الحركة التي ـ وأنا أعترف بالهزيمة ـ تجعلني أنتصر.

في هذه الحلبة التي رمانا قيصر داخلها، كي نتصارع ضد بعضنا البعض، الإنسان الذي يموت هو المهزوم، والذي يقتل، هو المنتصر.

مثل محارب(**) ـ في الحلبة التي رمانا القدر داخلها،

(*) تنويع: ولهذا أريد أن اقتل نفسي.

(**) يبدأ هنا نص منعزل عن النصوص الأخرى، إلا أنه في الواقع يبدو كشقيق توأم للنص السابق.

مكتبة الفكر الجديد

كأننا أحد العبيد أو المحكومين ـ أحيّي، بدون أن أرتجف القيصر الذي ربما هو موجود في هذا السيرك المرصع بالنجوم. أحييه من أمامه، بدون كبرياء، لأن العبد لن يعرف ذلك؛ وبدون فرح أيضاً، لأن المحكوم لن يجيد التظاهر بذلك. ومع ذلك أحييه، على الأقل كي لا يشذ عن القانون رجل لا يحميه أي قانون. لكن، وبعد هذه التحية، اغرز في صدري السيف الذي لن يخدم في هذه المعركة. إن كان المهزوم هو الذي يموت، والمنتصر هو الذي يقتل، سأعتبر نفسي إذاً، وأنا أعترف بهزيمتي، منتصراً.

مكتبة الفكر الجديد

ملحق

مكتبة
الفكر الجديد

المبارزة(*)

في اعتقادنا أنه يجب منع المبارزة بشكل كامل وقطعي؛ ليس لأنها خطرة أو لأنها السبب في مجازفة تقود إلى الموت، بل لأنها أمر سخيف جداً لدرجة أن ليس لها الحق في أن تكون موجودة.

ومن ثم المبارزة، المبارزة العصرية!

في الأزمنة الغابرة، وحين كان الأمر يتوافق مع عادات تلك الحقبة ومع حالتها النفسية، لربما أمكن القبول بها. لكن اليوم، ما النفع منها؟ إذ انها الآن لا تناسب تقاليدنا الراهنة، إلا إذا اعتبرناها نوعا من «الحمرنة».

سأضيف اعتبارا آخر. ليس فقط أن المبارزة عمل أحمق مثل [...] الشرف، بل لأننا نرى أنها تمارس بشكل ثابت من قبل أناس، لا يملكون ولا أي ذرّة ممّا يمكن أن نسميه «الشرف».

(*) نص مكتوب باسم البارون دو تيف باللغة البرتغالية.

مكتبة الفكر الجديد

عصابات مقنعة، سماسرة[1] [...]، وحين يشعرون بشجاعة ما ـ وهذا ما يحدث عند البقية في أغلب الأحيان ـ نجدهم على استعداد كلهم، وعند أدنى حدث يمس الشرف الذي لا يمتلكونه، نجدهم يسيرون للدفاع عنه في حقل الشرفاء الحقيقيين.

لا يمكن فهم نفسية هؤلاء الناس بتاتاً. لقد شاهدت ما يكفي من ذلك، فبالرغم من كلّ شيء، لا يسعني في الختام إلا أن أقول إنها الحماقة التي تهيمن.

(١) الكلمة بالفرنسية في النص الأصلي.

مكتبة الفكر الجديد

ثلاثة متشائمين(*)

هم الثلاثة ضحايا الوهم الرومنسي، وكانوا كلّهم ـ بخاصة ـ كذلك، إذ لا أحد منهم امتلك مزاجاً رومنسياً. كانوا ثلاثتهم منذورين لأن يكونوا كلاسيكيين، ففي طريقة كتابتهم، نجد أن ليوباردي كان هكذا على الدوام، أما فيني فكان تقريباً الوقت كله، في حين أن أنتيرو دو كنتال لم يكن على هذا الشكل إلا في القالب المتكامل لـ «سونيتاته»(**). ومع ذلك، فإن السونيته ليست كلاسيكية، على الرغم من أصلها الهجائي.

كانوا الثلاثة من المفكرين، وكنتال أكثر من الاثنين الآخرَين، إذ أنه امتلك طاقة ميتافيزيقية حقيقية؛ بعده، يأتي ليوباردي، وفيني في آخر الترتيب، على الرغم من أنه يسبق ومن بعيد كلّ الرومنسيين الفرنسيين الآخرين الذين يجب المقارنة فيما بينهم، بطبيعة الحال، وفق هذه النقطة المحددة.

(*) نص مكتوب باسم بارون تيف باللغة الإنكليزية.

(**) جمع سونيتة، قصيدة من ١٤ بيتاً.

مكتبة الفكر الجديد

يتلخص الوهم الرومنسي في تأويل، وبطريقة حرفية، جملة الفيلسوف الإغريقي التي يقول فيها إن الإنسان هو قياس كلّ شيء، أو بطريقة عاطفية، تأكيد أساس الفلسفة النقدية، التي تشير إلى أن العالم هو فكرة إنسانية صرفة.

هذان التأكيدان ـ اللذان يبدوان بحدّ ذاتهما غير ضاريّن بالنسبة إلى المثقف ـ خطران بشكل خاص، بل حتى أنهما عبثيان، حين يتحولان إلى خاصية مزاج، بدلاً من أن يكونا من المفاهيم الثقافية الصرفة.

يحمل الرومنسي كلّ شيء في داخله، وهذا ما يحيله غير جدير في التفكير الموضوعي. إذ أن ما يحدث له شخصياً، يجب أن يحدث أيضاً لسائر الأشياء. إن شعر بأنه حزين، فإن العالم بأسره ـ لا يشبهه فقط ـ بل هو في الواقع عبارة عن خطأ كبير.

لنفترض أن يقع رومنسي في غرام فتاة شابة تنتمي إلى طبقة اجتماعية أعلى من طبقته، وأن اختلاف الطبقات هذا يمنعهما من الزواج، أو حتى تمنعها، هي، من أن تبادله الحب بدورها، لأن الأعراف الاجتماعية متجذرة عميقا في الروح البشرية ـ وهذا ما يتجاهله الإصلاحيون عندنا في أغلب الأحيان. سيقول الرومنسي: «لا يمكنني الحصول على هذه الشابة التي أحبها لأن الأعراف الاجتماعية تقف عائقاً

مكتبة الفكر الجديد

بيننا، لهذا فهي سيئة (هذه الأعراف)». بينما نجد أن الرومنسي، أو الواقعي، يقول من جهته: «القدر يقف ضدي، إذ أنه جعلني أحب فتاة بعيدة عن منالي» أو حتى: «لقد تهورت في زرع حب مستحيل». صحيح أن ذلك لا يعني أن حبه أقل شأناً، بل أن حكمته أرفع وأعلى. لا يخطر أبداً في بال الشخص الواقعي أن ينتقد الأعراف الاجتماعية لأنها قد تسبب له ضرراً كبيراً، أو لأنها تسبب له خطأ شخصياً ما. يعرف جيداً أن القوانين ليست جيدة أو سيئة إلا بشكل عام، وبأن ما من قانون يناسب كلّ حالة على حدا، كما أن أفضل القوانين من الممكن أن يسبب إجحافاً رهيباً في قرار الحالات الفردية. بيد أنه لن يخلص إلى اعتبار وجوب الغاء القوانين، بل سيخلص ببساطة إلى اعتبار أن هؤلاء الأشخاص ذووي الحالات الخاصة، لا حظّ لديهم.

يجب أن نحول، إلى واقع [خارجي](*) عواطفنا أو ميولنا الفردانية، كما حالاتنا النفسية إلى قياس للكون؛ أن نتخيل ـ وبما أننا نرغب أو نحب العدالة ـ بأن على الطبيعة أن تبرهن عن الرغبة عينها أو الحب ذاته؛ لنفترض إن كان هناك أمراً سيئاً، يمكننا تحسينه من دون أن نحوله إلى أسوأ: هذا جزء من المواقف الرومنسية التي تحدد النفوس غير الجديرة

(*) كلمة من إضافة المترجم.

مكتبة الفكر الجديد

برؤية الواقع خارج رؤيتها الخاصة ـ تماماً كالأطفال الذين يطالبون بالقمر على الأرض.

أغلب الإصلاحات الاجتماعية للعصر الحديث تبدو مفاهيم رومنسية، جهدا من أجل ملاءمة الواقع مع رغباتنا. هذه الفكرة المهينة للكمال الإنساني [...](*).

يؤكد المفهوم الوثني لأصل الشر، عبر نفسه، ميل الوثنيين لوعي الواقع الموضوعي. يدرك الوثني هذا العالم على أنه محكوم مباشرة من قبل الآلهة الذين هم ـ في نهاية المطاف ـ أناس يقبعون في أعلى السلّم؛ إلا أنهم كالبشر، يستطيعون أن يكونوا طيبين أم شريرين، أو أحياناً طيبين وأحياناً شريرين، وكما البشر أيضاً، لديهم نزوات وقفزات مزاجية؛ آلهة محكومون، في التحليل النهائي، بقدر يجرهم بدوره وتحت نير السلطة التي يتحرك في فلك مجرتها المنطقية، الآلهة كما البشر، إلا أنهم على تفاهم مع منطق أعلى يتفوق على منطقنا، إن لم يكن يتناقض مع منطقنا. يمكن لذلك كله أن لا يكون سوى حلم، مثل جميع النظريات، إلا أنه يظهر مطابقاً لمجرى العالم ومظهره، ليحيل وجود الشر واللاعدالة إلى أمر يمكن شرحهما. تجرنا الآلهة مثلما نجر الحيوانات وكل ما هو دون مستوانا.

(*) النص غير مكتمل في المخطوط الأصلي.

مكتبة الفكر الجديد

في مقارنة مع النظرية المسيحية، التي نجد من خلالها أن الشر في العالم يتأتى من إله لطيف وكليّ القدرة، لرأينا أن المنطق الأعلى للنظرية الوثنية تقفز أمام أعيننا. يمكن لوجود الآلهة بأعداد كبيرة أن يرضي ـ وربما لا ـ الروح البشرية؛ أكانت هذه الالهة مسؤولة عن شططنا وعن خطايانا ـ أم لا ـ إلا أنها ترضي أرواحنا؛ بيد أن وجود آلهة عديدة وفاسدة لن تشبع أرواحنا إلا إذا أخذت في حسبانها وجود النزوات، والشر، واللاعدالة في مجرى العالم الظاهر.

مكتبة الفكر الجديد

ليوباردي(*)

هاكم حالة علينا أن نكون جميعا أمامها أشبه بـ فرويد (ات). من المستحيل علينا أن لا ننحني صوب التفسير الجنسي، إذ أن تصرفات ليوباردي الاجتماعية تتوافق انطلاقاً من مشكلته الشخصية [...].

أسوأ ما في هذا النوع من المآسي، إنها مأساة هزلية ـ من دون أن تنتمي إلى هزلية قصائد سوينبورن الغرامية.

«أنا خجول مع النساء، إذا الله غير موجود»: هاكم نوعاً من الميتافيزيقيا التي لا تقنعنا كثيراً.

(*) نص يحمل اسم بارون تيف، مكتوب باللغة الإنكليزية.

مكتبة الفكر الجديد

كلمة ختامية

أنطونيو تابوكي

يخرج «بارون تيف» ـ شكل شخص بالكاد مرسوم ـ بشكل مباشر من واحدة من أكثر النمطيات «زيارة» في الأدب: المخطوط الذي وُجد صدفة. لم يكن ذلك في سرقسطة كما مع مخطوط بوتوكي؛ وليس أيضاً في ظروف غريبة كتلك التي عرفناها مع مخطوط «غوردون بيم» لإدغار ألن بو، كذلك ليس في غرف وأديرة القرن الثامن عشر، الفرنسي والشرير قليلاً، مثلما يتطلب الأمر. أو المسكون بعشاق شيطانيين وراهبات شغوفات. لقد كان هذا المخطوط، يرتاح ببساطة في درج إحدى الغرف في فندق، حيث وُضع كي يتمّ حفظه من «الأيدي ـ الواضحة بشك ـ أيدي عمّال الفندق»...

هذا الشخص الهارب الذي، أعاد ريتشارد زينيت «ترميمه» بعناية قصوى، من أجل متعتنا كمتفرجين شاكرين،

مكتبة الفكر الجديد

لا يفعل شيئاً سوى اجتياز، وبسرعة، «التراجيديا الموضوعية» لهذا المسرح الفاقد للخشبة، الذي كانت عليه أعمال فرناندو بيسوا.

إنه شخص: هذه هي حالته، وهكذا علينا أن نقرأه. أو ربما، ليس هو سوى فكرة شخصية أفلاطونية ليست بحاجة، لكي تنوجد، إلى أي سيرة. أما فيما يتعلق بالجرعة السيرية (الأوتوبيوغرافية) التي استطاع بيسوا أن يحفرها له، فمن المؤسف أن الوقت قد تأخر كثيراً، كي نصدقها. مثل تولستوي أو بلزاك، آمن بيسوا بأنه أشياء كثيرة؛ لكن بخلاف روائيي القرن التاسع عشر الكبار، عرف بيسوا جيداً أن هناك كثيرين يعتقدون بالأمر عينه بأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا عديدين؛ وإذا ما كان هؤلاء الروائيين العباقرة قد غزوا العالم قبل أن يرفعهم القرن العشرون من سريره، أما بالنسبة إلى بيسوا، وبطريقة أليمة، ولا يمكن الالتفاف حولها، فقد ارتفع من عصره لكي يستنتج أن العالم كان غريباً عليه؛ لقد خرج من منزله ليلاحظ أنه كان الأرض بأسرها، بالإضافة إلى النظام الشمسي، ودرب المجرة، واللانهائي. أنه فعلاً هذا الوعي وهذا الوعي الذاتي بشرطنا الإنساني هما من جعل من بيسوا أكبر الروائيين من دون أن يكتب رواية والكاتب الأكثر حداثة بدون رحمة: فنقطة الوصول، هي بطريقة أو بأخرى، النقطة التي تلزمنا كي ننطلق من جديد.

مكتبة الفكر الجديد

إذا كان بيسوا نفسه يمنعنا من التفكير من الاعتقاد بأن قليلاً من حياته الحقيقية موجودة في هذه الحيوات الغريبة التي وصفها، فإنه لا يمكننا حينها أن نتساءل ما إذا كانت الحياة التي عاشها حقيقة كانت، بدورها، حقيقية؛ هذه الحياة التي هي «تماثل مؤقت مرئي لنفسها»، وفق ما جاء في إهداء على صورة كان أرسلها إلى عمته أنيكا[1]. هل معنى ذلك، سيكون كلّ شيء مزيفاً؟ وهل كلّ شيء في هذا البارون كان مزيفاً، اصطلاحياً جداً، لم يكن رواقياً حقيقياً، بل إنه «كليشيه»[2] للرواقي، «كليشيه» إنسان مكشوف البصيرة، كليشيه للمنتحر؟ على العكس من ذلك، ما من شيء أكثر حقيقية من ذلك. كان مصنوعاً من الحقيقة التي جعلها بوشكين مرجعه: «لقد ذرفت الكثير من الدموع على المتخيل». الرواقي، في الواقع، ليس هنا بارون تيف، بل هو الشاعر الذي تخيله. وبالتالي، هو نحن، سكان هذه الألفية المرعبة، التي جاء إليهم شاعر ليعلمهم في نهاية المطاف، بأنهم ليسوا هم من يحلمون بفراشة، بل أننا لم نكن سوى حلم هذه الفراشة. نحن الذين يمكن أن نكون مثل عظاية قطع لها ذنبها لكنها تأمل، وطبقاً لقوانين الطبيعة، أن تراه

(١) كانت مثل بيسوا، تؤمن بالظواهر الباطنية وما بعد الطبيعية.

(٢) بالفرنسية ـ في نص تابوكي.

مكتبة الفكر الجديد

ينمو من جديد؛ بيد أننا لسنا سوى هذا الذنب، الذي بقي حيّاً بشكل مستقل عن العظاية، والذي يأمل، وهو يهتز، وبخلاف كلّ قوانين الطبيعة، أن يرى نمو عظايته[1].

(١) تُشير (إحالة) تابوكي هنا إلى بيت من قصيدة بيسوا (ألفارو دو كامبوش) «دكان التبغ»، التي يقول فيها: «ربما لم تعش إلا مثل عظاية، قطع لها ذنبها، والذي بقي يهتز، بشكل مستقل عن العظاية».

مكتبة الفكر الجديد

ما بعد الوفاة

ريتشارد زينيت

«لو عرف البشر كيف يتأملون سرّ الحياة، لو عرفوا كيف يحسّون الألف عقدة التي تخرب الروح، عند كلّ خطوة، في كلّ عمل، لما تحركوا أبداً، لما تجرؤا حتى على العيش.

لقتلوا أنفسهم بالأحرى من الخوف، مثل أولئك الذين ينتحرون كي لا يعدموا بالمقصلة صبيحة اليوم التالي»

من «كتاب القلق»

بالتأكيد، شعر بارون تيف بالخوف. أو بالأحرى: حين استبد الخوف ببيسوا، اخترع هذا البارون كي ينقذ نفسه هو. لقد حول كلّ وضوحه الصارم إلى هذا النبيل الحزين، الذي لم يستطع تحمله، لأنه كان يشعر بثقل هذا الوضوح، حيث أن تحمله لم يكن يشكل جزءاً من دوره. لقد ولد بارون تيف من أجل أن يموت.

من البديهي (والواضح) أن كلّ «البدلاء» كانوا بالنسبة إلى

مكتبة الفكر الجديد

بيسوا أدوات تعزيم وخلاص. لقد ولدوا، واحداً بعد الآخر، لينقذوا بيسوا من الحياة التي لم يكن يتحملها، التي لم يكن يحبها، أو التي كان تبدو له أنها تخطت قدراته، بيد أن بارون تيف، قد اضطلع بالجانب الأخطر لمبدعه: منطق بدون كابح. «لقد كنت دائماً عقلانياً في أحاسيسي» مثلما يعترف لنا به هذا النبيل، وحين ينجح في الوصول إلى هذه الخاتمة بأن «السلوك العقلاني للحياة أمر مستحيل»، يبدو الانتحار عندها المخرج الذي يفرضه العقل عليه. أو الذي يفرضه بيسوا عليه، المخلص دائماً لأدبه.

إن كان بيسوا قد حدّد برناردو سواريش (صاحب «كتاب القلق») بأنه نصف بديل، لأنه كان مجرد «تشويه بسيط» لشخصيته، فإننا نجد أن هذا التحديد عينه يوافق أيضاً بارون تيف، الذي وجد نفسه مشوّهاً، حتى في جسده، إذ كما يكتب، لقد بترت ساقه اليسرى. لقد لعبت هذه التجربة الأليمة، وبالدرجة الأولى، دوراً في تربية هذه الشخصية النبيلة بقدر ما هي رواقية، والتي كانت جديرة بتحمل العملية الجراحية بدون تخدير عام؛ بيد أنه من المستحيل ألا يكون العضو المبتور قد ارتدى قيمة رمزية. «كل شيء هو رمز» (مثلما نجد في إحدى قصائد كامبوش)، وهذا ما يشكل مبدأ قد لا يوافق عالم كلّ شخص منّا ولكنه مبدأ يسم جيداً الكون وفق بيسوا.

مكتبة الفكر الجديد

لقد قارن بيسوا هذه «التشوهات» المتنوعة في نص خاص لمقدمة «متخيلات فواصل اللهو»، إذ يقول: «المحاسب ـ المساعد برناردو سواريش وبارون تيف ـ هما الاثنان شخصيتان غريبتان عني، يكتبان بأسلوب مشابه في جوهره، يستعملان النحو عينه ويظهران الهمّ نفسه في اختيار العبارات: ما يعني أنهما يكتبان بأسلوب ـ أكان سيئاً أم جيداً ـ هو أسلوبي. أقارن بين هذه الشخصين لأنهما يملكان تمظهر الظاهرة عينها ـ عدم التكيف مع واقع الحياة، وأبعد من ذلك، هو عدم تكيف عائد إلى الأسباب عينها وإلى الدوافع نفسها. لكن وعلى الرغم من أن اللغة متشابهة عند بارون تيف وبرناردو سواريش، إلا أن الأسلوب مختلف: فعند النبيل هو أسلوب مثقف، مجرد من الصور قليلاً، كيف أصف ذلك؟ إنه جاف وضيق؛ أما أسلوب البورجوازي فهو انسيابي، يتشارك مع الموسيقى والرسم، إلا أنه يبدو هندسياً قليلاً. يفكر النبيل بوضوح، ويكتب بوضوح ويسيطر على عواطفه، لا على أحاسيسه؛ بينما المحاسب المساعد لا يسيطر لا على عواطفه ولا على أحاسيسه، وحين يفكر، يبقى فكره فرعيا تجاه الإحساس».

في الواقع، يبدو الأمر حقاً بأنه من المستحيل السيطرة على الأحاسيس وحتى ـ في نهاية الأمر ـ على العواطف،

مكتبة الفكر الجديد

وهذا ما قاد بارون تيف في أن يضع حداً لأيامه. «الفكر ـ مثلما لاحظ في نصه الوحيد المؤرخ في عام ١٩٣٠ ـ في تجلياته الأقوى، لا يمكنه فعل أي شيء تجاه انتفاضة العاطفة». يمكنه أن يتحمل الألم، الذي كان يحتقره، لكنه لا يمكنه تحمل الذل في أن يرى نفسه خاضعاً لنزوات شخص غريب: من هنا، فبالنسبة إليه كما بالنسبة إلى الشخصيات (البدلاء) الأخرى لبيسوا، نجد أن كينونته الأكثر حميمية، المحملة بأكلمها بالأحاسيس والأحلام، بقيت دائماً غريبة عنه. فالسبب الذي قتل البارون لم يكن فقط السبب العائد إلى كفاءته الثقافية، بل بسبب أن هذا الرجل لم يكن يقبل بأن لا يكون على حق، أي بسبب كبريائه. من بين كلّ الممثلين ـ الكتّاب الذين لعبوا دوراً على خشبة مسرح بيسوا الخاص، نجد أن تيف هو من كان يعبر بشكل أفضل عن العقلانية والكبرياء، وهما صفتان نجدهما مرتبطتين بشكل قدري عند المخرج نفسه (أي بيسوا).

لم يكن برناردو سواريش أقل تكيفا من تيف مع الجانب العملاني للحياة، إلا أنه لم يكن يثار منها بهذا القدر. فهو كبُورجوازي، كان يستفيد، قدر استطاعته، من هذا الوجود المتواضع الذي كُتِب له. أما البارون، الذي كان أكثر جفافاً، وأكثر «صلابة» مثلما كان يقول بيسوا، فقد كان يجهل بشكل

مكتبة الفكر الجديد

كامل تقريباً متعة الأشياء البسيطة. يتحمل الألم بشكل رواقي، لكن لم يكن هناك، في هذا الأمر، أي سمو، بل فقط هذا الغرور البخس لذكر فاشل، من المحتمل أنه كان يعاني من العجز. كان سواريش أكثر إيبقورية من كونه رواقياً (كان إيبقوريا سفسطائياً، مثلما نجد في النص الأول من «كتاب القلق»)، ولم يكن فقط يتحمل الألم، بل كان يسبر أغواره، ويستغله في كلّ أبعاده. بينما بارون تيف، من جهته، يجد ببساطة مشوبة بالمرارة بأن كلّ حياة «كانت معركة خاسرة على الورق»؛ سواريش أيضاً لديه ملاحظة مماثلة، إلا أنه ـ وبما أنه يعرف مسبقاً أنه سيخسرها ـ كان يجد لذة في صورة المنسحبين الذي يخطها على الورق.

يشكل نص «تربية عاطفية» العائد لسواريش ـ (الذي كتب في العام وإن كان لم ينسب له إلا بعد فترة طويلة جداً)ـ يشكل تناقضاً صادماً مع «تربية الرواقي». فنص سواريش يعلّمنا بأن على الحلم الكامل أن يتجنب العذاب، لكن ليس «مثل رواقي أو إيبقوري من الدرجة الأولى». بل عليه، وعلى العكس من ذلك، «أن يذهب للبحث عن اللذة في الألم». كتاب «تربية الرواقي» يبدو بعيداً عن أن يكون منهاجاً، أو أن يقدم إلينا نصائح عملية، مثل كتاب سواريش، بل هو كتاب حوليات شخصية، مكثف، ضمن هذا الإطار: «ما تعلمته

مكتبة الفكر الجديد

خلال حياتي»، مؤلف من دروس سلبية تستدعي كلاً من البدلاء: سواريش وريكاردو رييش وكامبوس (الما بعد مستقبلي) وبيسوا نفسه.

مع العلم، أن بيسوا في هذا النص، وبطريقة ما، شيّد سيرة البارون: طفولة موسومة بالوحدة، قائلا إنه كان الطفل الوحيد (لعائلته)، وعلى علاقة لصيقة بوالدته التي توفيت حين بلغ سن الرشد؛ كانت حياته ميسورة كما يبدو، دارت في ملكية خاصة تقع في ضواحي لشبونة؛ قام ببعض الرحلات إلى الخارج، وبخاصة إلى باريس حيث تردد على النبلاء الفرنسيين؛ وجد صعوبة في إقامة علاقات جنسية مع النساء؛ بُترت ساقه اليسرى قبل فترة قصيرة من انتحاره الذي وقع في ١١ تموز من العام ١٩٢٠ (وفق الملاحظة القصيرة التي وردت في صفحة الوفيات لصحيفة «دياريو دو نوتيسياس، المؤرخة بتاريخ اليوم التالي). كذلك نجد في هذا النص بأن بيسوا حاول، أو يسعى لمحاولة كتابة «المخطوط الوحيد والفريد لبارون تيف» بينما كان يتردد في الواقع بأن ينسب هذا العمل إلى هذا البديل.

تقودنا هذه السيرة الموجزة وبشكل مباشر إلى واحد من الهواجس الكبيرة التي نجدها عند تيف: مشكلته الجنسية، التي يتحدث عنها في الصفحات الأولى من نصه: «الأسباب

مكتبة الفكر الجديد

التي جعلت بارون تيف لا يغوي شابات أخريات». وإن اعتبرنا أن ذلك ينطبق على البدلاء الآخرين بدورهم، فلكي نستنتج أنهم كانوا عازبين كلهم ولم يقيموا سوى علاقات قليلة مع النساء، إلا بطريقة مجردة بشكل عام، وغير مباشرة. فليديا والصديقات الأخريات اللواتي يتحدث عنهن ريكاردو رييش، فتبدون من دون جسد؛ كما أننا لا نعرف أبداً اسم حبيبة ألبرتو كايرو، وفيما يخص المهندس المستقبلي ألفارو دو كامبوش الذي يحس «كل شيء بكل الطرق» فهو يحس بأشياء حبه ـ أكانوا رجالاً أم نساء ـ وبخاصة حين لا يعودوا هنا. بل أكثر من ذلك: ما من اسم بديل، بما فيهم سواريش، نجده يتذمر من قلة الفتوحات الغرامية. فهم إن كانوا يعانون الوحدة، فلأنهم في ذلك كانوا أقوياء جداً.

يشكل الحب ـ أكان مفهوما أم نظرية ـ ثيمة تمت معالجتها دائماً في أعمال بيسوا، لكنه فقط صوب العام ١٩٢٨، مع «ولادة» تيف، نجد أنه تمت مقاربته بكونه «مشكلة». ولِمَ في هذا التاريخ؟ لا شك يساعدنا الجواب على هذا السؤال في فهم السبب بكون هذا البديل على قدر قليل من «التخييل».

في نهاية عام ١٩٢٠، دخل بيسوا في مرحلة جديدة من حياته. فهو لم يكن قد تخلى فقط عن الحسوية والمستقبلية

مكتبة الفكر الجديد

وكل المذاهب الأخرى التي ولدت العام ١٩١٠، بل تخلى أيضاً عن كلّ مشاريع المجلات ودور النشر التي تصورها وأدارها بنفسه. ربما كان يشعر بأنه لم يتبق له سوى سنوات قليلة أمامه (توفي العام ١٩٣٥)، لهذا بدأ «بكتابة نفسه» بوضوح أكبر (فالبارون، عشية رحيله، امتلك «وضوح الروح لكي يحس، كما الذكاء لكي يفهم، وهذا ما أعطاه القوة لكي يتكلم)؛ لقد حول سخريته إلى آلة دقيقة لتفشي كينونته الحميمة، بدلاً من أن يخفيها؛ لقد قام بتعزيز عمله في الوقت عينه الذي كان يسترخي فيه، «ترك الأمر على سجيته» حرفيا. لكي ينجح في النهاية، ومثلما كان يعتقد، في الوصول مباشرة إلى ما كان عليه ربما. كتب بيسوا في العام ١٩٣٢، رسالة إلى الناقد الأدبي جوان غاسبار سيمويش، الذي أصبح لاحقاً كاتب سيرته، بأن «الوقت قد تأخر قليلاً وبالتالي أصبح من العبث أن يتابع هذا التنكر بشكل كليّ» (يقصد البدلاء هنا)؛ ومع ذلك، فقد كان هذا التنكر، ولفترة طويلة، يشكل النسبة الكلية، على مستوى نشر أعمال هذه «الأنوات» الأخرى كما على مستوى كتابتها. لقد نجح المحاكي بإخلاص في محاكاته، كما أن روحه أصبحت أكثر عريّاً، أكثر حرية، أي أصبحت نفسها بشكل أكبر. في هذه اللحظة ظهر، وبشكل متواز، كامبوش «الجديد عبر قصيدته الشهيرة

مكتبة الفكر الجديد

«دكان التبغ» (١٩٢٨)، كما سواريش صاحب «كتاب القلق»، وبارون تيف، ومعهم ظهر الشكل الأكثر تأثيراً، والأكثر تحليلاً ـ ذاتياً، في كلّ أعمال بيسوا. إنها حقبة «نصف البدلاء»، وفق تعبير بيسوا نفسه، لأن كامبوش، بدوره، توقف عن أن يكون شخصاً «آخر» حقيقياً. فهذه الأقنعة الثلاثة الكبيرة لبيسوا لا تختلف تقريباً عن قناع ذاك الذي اخترعها.

استعاد بيسوا علاقته الغرامية الوحيدة والفريدة (مع أوفيليا) في العام ١٩٢٩، لكي يعود ويتركها تنطفئ كليّاً بعد عدة أشهر؛ لقد استخدم بشكل طبيعي هؤلاء الثلاثة «الآخرين الذين هم أنا تقريباً» لكي يعبر ولكي يحاول أن يكتشف، ما كان يبرهن عليه في هذا المجال الذي لم يكن قد تعمق فيه من قبل. في حين يستدعي كامبوش وبحنين، النساء المتعددات، وبخاصة تلك الشقراء الإنكليزية، اللواتي كان أو اللواتي كان يمكنه أن يربط حياته بهن («وماذا لو كنت تزوجتها»؟ يسال نفسه وهو يحلم)، من ناحيته، لم يُحَب المحاسب المساعد سواريش، إلا مرة واحدة، من دون أي شعور متبادل من طرفه) وقد وجد أن هذه التجربة تقتصر على «تعب أكبر من السأم». وقد برّر خياره للعفة عبر حجج مختلفة، بما فيه هذا التبرير الذي يمكن له أن يكون أكثر

مكتبة الفكر الجديد

دلالة: (في الواقع) «ليس هناك أي شيء آخر سوى خجلي وعدم كفاءتي على العيش».

غالباً ما اتهم البارون وضعه الاجتماعي الذي منعه من الزواج ومن يعرف؟ لربما كان سعيدا، مثل كامبوش (صاحب «دكان التبغ»)، فيما لو تزوج ابنة «الغسالة»، بيد أنه ليس من الواضح والبديهي، فيما يخص الوضع العام لعلاقاته مع الجنس الآخر، في أن تكون مشكلته أكثر مباشرة وأكثر شهوة جسدية. ما من خادمة في منزله، وعلى الرغم من

كونها «متوفرة»، كانت تلائمه. فعبر شخصية البارون وما يسميه ـ بطريقة ملطفة ـ «خجله المبكر» تجاه النساء، يعترف بيسوا بالطريقة الأوضح بعدم قدرته في هذا الموضوع (ما لا يعني أبداً عجزاً جنسياً، إذ من المحتمل جداً أنه لم يحاول مطلقا فيما يخص هذا المجال).

العجز الثاني، لا يقل مأساوية: إذ بالنسبة إلى البارون يكمن الأمر في إنتاج عمل أدبي صالح أو وفق الصيغة الضخمة للعنوان الفرعي من هذا الكتاب، «استحالة إبداع فن متوفق». ففي واقع الأمر، لا تختلف هذه المأساة عن سابقتها، مثلما يبين ذلك أطول نصوص تيف «وأن أفكر أنه كان باستطاعتي أن أعتبر عملاً أدبياً هذه الحفنة غير المتناسقة من الأشياء التي لم تكن بعد قد كُتبت»... من هنا ما من

مكتبة الفكر الجديد

بحاجة أبداً لأي نظريات فرويدية من أجل فهم أن بيسوا قد جعل الغريزة الجنسية متسامية في عمله الأدبي، إذ أنه يقول ذلك بنفسه[1]. فحين لا تستجيب هذه الغريزة مع متطلباته، كان يتعرض لكبت مماثل لذاك الذي يعرفه الرجال الذين يفشلون في فتوحاتهم المزعومة، الغرامية أو الجنسية.

إن حالة الأزمة، التي يحدثها هذا الفارق بين العمل الذي يتمنى أن يحققه وبين ذاك الموجود على الورق، كانت موجودة دائماً عند بيسوا، لكنها تضاعفت مع تقدمه في السنّ. من جهة أخرى، شعر المؤلف بأنه كان يفقد قوة الشباب ونفحته، مثلما يشير إلى ذلك كامبوس في قصيدة متأخرة تبدأ بهذه الكلمات: «مضى زمن طويل منذ لم يعد

(١) فيما يخص هذا الأمر، يجد ريتشارد زينيت أن بيسوا، في رسالة مؤرخة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٣٠ وموجهة إلى جوان غاسبار سيمويش، يشرح لِمَ كتب بالإنكليزية قصيدتيه «الفاحشتين» المعنونتين Antinous وEpihalame بهذا العنف النادر: «ثمة في كلّ واحد منّا، ولكي نختص بالفحش، عنصر ما من هذا النوع، أكان بكمية كبيرة أم صغيرة، وبشكل طبيعي، بحسب الأفراد. وكمثل بعض العناصر التي تشكل عائقا في لعبة بعض السيرورات الذهنية العليا، قررت، في مناسبتين، أن ألغيهما عبر استعمال هذه الوسيلة البسيطة: أن أعبر عنهما بشكل مكثف». ويمكننا قول ذلك عن القصائد العائدة للمرحلة الأولى لـ كامبوش («نشيد الظفر»، «النشيد البحري»، الخ) كما عن العديد من نصوص «كتاب القلق»، حيث نشهد وبطريقة واضحة على المرور من الجنسي (وعن كبته) إلى التسامي عبر الكتابة.

مكتبة الفكر الجديد

بإمكاني/ كتابة قصيدة طويلة»! من جهة أخرى، فإن عشرين سنة من المجون مع بدلائه، قد تركت بيسوا محاطاً بأكوام صفحات كتابه «فاوست» الذي كان لا يزال في حالة سديمية، وبـ «كتاب القلق» حيث أن عنوانه وحده، كان يشير بدقة إلى مرحلة التأليف، ومئات القصائد غير المكتملة (من دون أن نحصي كلّ تلك القصائد التي نشرها أو التي كانت جاهزة للنشر)، ومقاطع الحكايات، والمسرحيات والأبحاث الدائرة حول أكثر المواضيع تنوعاً، وأخيراً عشرات المخططات ـ غير المكتملة بدورها، والمترددة والمتناقضة ـ والمنذورة للنشر في مجملها.

حين شاهد عمل كتّاب آخرين «المؤلف من أعمال مكتملة وذات اتساع ما»، صرخ سواريش: «أجل، يلهمني انجاز عمل مكتمل، ربما، أكثر من الرغبة في أي إحساس آخر». غالباً ما كان يتذمر من الحالة غير المكتملة والناقصة لكتاباته ـ تماماً مثل البارون. بيد أن حالم شارع دورادور، الذكي والبراغماتي على طريقته، يكتب أيضاً: «أبكي هذه الصفحات الناقصة، بيد أن الأجيال المقبلة، إن قرأتها، ستكون أكثر حساسية لدموعي من كونها أكثر حساسية لاكتمالها ـ إن استطعت تحقيقها ـ لأنها ستمنعني من البكاء وحتى من كتابتها».

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن البارون، وعلى العكس من ذلك، يقبل الدموع ولا عدم الاكتمال، ولم يكن يعترف بالسخرية الذاتية. كان متكبراً حتى النخاع، حدوده الرئيسية، فهذا شرطه الأرستقراطي، وقد توجب عليه حمل صليبه إلى النهاية. أما بيسوا، فمن جهته، فقد كان نخبويا، مفعماً بروح الطبقات وفخورا بأصوله الأرستقراطية ـ باختصار كان «سياسياً غير صائب» حتى بمعايير عصره. بيد أن هذا لم يمنعه من أن يعيش حياة ممحوة نسبياً، مثل برناردو سواريش، هذه الشخصية التي عاند كثيراً في اختراعها «في الظل، فنبل الكائن الذي يتلخص في أن لا يعلن شيئاً من الحياة». ومع ذلك نجده يحدد: «الأرستقراطي هو رجل لا يعرف أن ينسى بأنه ليس وحيداً أبداً؛ لهذا نجد أن المراسيم والأصول تقتصر على الأرستقراطيين. لنكبح الأرستقراطي»...

في حين نجد أن برناردو سواريش يحتفي بأرستقراطيته الداخلية، المرهفة، السرية والروحانية بالكامل فيما يجسد البارون النبل الجلي، نبل الجذور، أي ما كان بيسوا يتمناه لنفسه هو، على الأقل في إحدى زوايا روحه. لهذا أبدع بارونا على صورته: شخص عازب، يفكر على طريقته، يكتب مثله. وجاء الأمر بمثابة فشل كامل، إذ كما لو أن الأمر لا يمكن تفاديه، إذ بقناع أو بغير قناع، مع أو بدون الصفات

مكتبة الفكر الجديد

المتوجبة لذلك، لم يكن باستطاعة بيسوا أن يحترم أبداً قواعد حياة شخص نبيل بامتياز. لقد حمل بارون تيف، الذي عرف فشلاً مأساوياً بصفته أرستقراطياً حاملاً للقب، حمل البرهان بأنها الأرستقراطية الأخرى التي تلائم بيسوا، أي الأرستقراطية الصادرة عن سواريش، وهي التي تناسب بيسوا أكثر.

لقد أدّى بارون تيف مهمة أخرى: لقد حذر بيسوا، أو ذكره، بأن المنطق لا يمكن له أن يكون كلّ شيء. كان البارون يتشارك مع بيسوا في وضوح مدهش، إلا أنه كانت تنقصه السخرية والبداهة العاطفية اللتان تلعبان دوراً معاكساً عند سواريش وكامبوش. كان تيف «يفكر بوضوح»، يفكر دائماً، يفكر بصرامة، ويصل إلى وضوح الفراغ المطلق، لكن من دون هذه الخفة الوجودية التي تسمح للمهندس كامبوش في المزاح: «بدأت أعرفني. أنا غير موجود». في حين أن المحاسب المساعد سواريش، وفي جملة غير شخصية وصادمة، ليس بمنأى عن ذلك: «البحث عن الحقيقة (...) تحمل دائماً، لروح جديرة بأن تكسب الجائزة، اليقين الأخير لـ لا وجوده». أما بالنسبة إلى البارون المسكين، لم ينقصه فقط في الحياة عملاً أدبياً مكتملاً وفتوحات جنسية وأماً وساقاً يسرى، بل أيضاً كان ينقصه حس الدعابة.

مكتبة الفكر الجديد

لكن، وكما لو أنه وضع احتياطي في الوقت عينه، كان تيف البديل الضروري. علينا أن نتذكر بأن البارون لم يمت، بدقة، بسبب وضوحه الجلي، بل من الكبرياء الذي ولد من هذا الوضوح. لهذا توجب على بيسوا، أن يميت هذا البديل، أكان تيف أو أي أحد آخر يشبهه، أن يموت بسبب أخطائه هو. وخطيئة بيسوا الكبرى، على الرغم من كلّ شيء ـ على الرغم من عادته فيْ تأصيل أن يجعل كلّ شيء أمراً نسبياً وفي إحالة كلّ شيء إلى قاسم العدم المشترك والأخير ـ كانت خطيئته، برغم كلّ شيء، في أن يكون إنساناً، يظهر حالات وردات الفعل العادية التي تسم نوعنا (البشري). لم يكن باستطاعته الهرب بشكل كامل من مشاعر الخيلاء والكبرياء التي تثيرها فيه هذه الخاصيات الثقافية المدهشة، إذ كان يعرف أيضاً بأن هذه الأمور لا تمثل شيئاً ولم تكن سبباً لنأخذه كثيراً على محمل الجد؛ لأن اليقين لا ينتمي إلا إلى الإيمان (المؤمنون لا يعرفون الشك أبداً)، فالحياة، القصيرة والعبثية، يجب أن لا نعتبرها مهمة جدية كثيراً. لهذا ابدع بيسوا البارون وأسبغ عليه منطقه المتعالي، كي يقتله في نهاية الأمر، بابتسامة لا تملك أبداً أي مسحة من البراءة.

مكتبة الفكر الجديد

إضافات المترجم إلى العربية

لم تحمل النسخة الأصلية من نص بارون تيف هذا، ولا حتى الترجمات إلى بعض اللغات الأخرى، أيّاً من النصوص التي ستأتي لاحقاً، إذ أن الباحثين وشرّاح فرناندو بيسوا، وجدوا أنها تنتمي إلى برناردو سواريش، صاحب «كتاب القلق»(*). بيد أنها نصوص، لا نجدها في الطبعة الأولى، «الكاملة» من كتاب سواريش، بل تمت إضافتها لاحقاً (بعد سنين عديدة)، حين تمّ انجاز النسخة النهائية الكاملة من كتاب سواريش العتيد.

التردد حيال هذه النصوص، يعود بالدرجة الأولى إلى بيسوا، إذ كان يرغب في نسب «كتاب القلق» إلى بارون تيف، قبل أن يبدع شخصية برناردو سواريش. كذلك، نجد

(*) شرحت سبب استعمالي عنوان «كتاب القلق» في مقدمتي لكتاب «لست ذا شأن»، الصادر عن منشورات الجمل، والذي تضمن ما أسميته ـ اصطلاحاً ـ شذرات من الفكر الفلسفي عند فرناندو بيسوا.

مكتبة الفكر الجديد

هذا التردد عند دارسي بيسوا كما عند مترجميه إلى لغات أخرى، لأنهم لم يجدوا هذه النصوص من قبل، بمعنى انتظروا كي تكشف «الحقيبة السحرية» عن غالبية مكنوناتها، وأقصد الحقيبة التي وضع فيها بيسوا كلّ مخطوطاته قبل أن يرحل.

ما جعلني أضع هذه النصوص هنا، في ملحق آخر للكتاب، هو نص ريتشارد زينيت الأخير في الكتاب ـ وهو واحد من أكبر دارسي بيسوا في العالم، مثلما يعود له الفضل في «ترميم» هذا الكتاب، أي «تربية الرواقي»، الذي عمل على مخطوطاته ليخرجه إلى العلن. أقول هو السبب لأنه يستشهد في نصه «ما بعد الوفاة» بالعديد من النصوص «الحائرة» بين سواريش وبارون تيف، التي وُضعت في النهاية في الطبعة النهائية «الكاملة» من «كتاب القلق».

لهذا، ولإضافة بعض الشروحات التي وجدتها تنير قراءة متن هذا النص، مثلما تنير قراءة زينيت للنص، قمت بترجمة هذه النصوص، التي وضعها زينيت تحت عنوان «النصوص الكبيرة» وألحقها بالطبعة «النهائية» لـ «كتاب القلق».

إسكندر حبش

مكتبة الفكر الجديد

النصوص الملحقة
بالترجمة العربية

مكتبة
الفكر الجديد

النص الأول

مقدمة «متخيلات الفاصل الترفيهي»

أدخل بعض الشخصيات في حكاياتي، أو في بعض عناوين كتبي الفرعية، وفي هذه الحالة أوقع باسمي ما يقولونه؛ ثمة آخرون أرميهم بالكامل خارج نفسي، وأوقع قائلاً ببساطة إنني اخترعتهم. هذان النوعان من الأشخاص يتميزان بالطريقة التالية: عند الذين أميّزهم بالكامل، نجد أن أسلوبهم عينه يختلف عن أسلوبي أو حتى، إن أصرّت الشخصية على ذلك، هو أسلوب مناقض (لأسلوبي) بالكامل؛ أما عند الشخصيات التي أمنحها توقيعي، لا شيء يميز أسلوبها عن أسلوبي، إن لم يكن ذلك في التفاصيل التي لا غنى عنها والتي من دونها لا يمكن لها أن تتميز فيما بينها.

أقارن بعض هذه الشخصيات فيما بينها لكي أظهر، عبر مثالين، ممّا يتألف هذا الاختلاف. المحاسب المساعد برناردو سواريش وبارون تيف ـ وهما شخصيتان غريبتان عني

مكتبة الفكر الجديد

بالكامل ـ يكتبان بأسلوب متشابه في جوهره، ويستعملان النحو عينه ويظهران الهمّ عينه في اختيار العبارات: أي يكتبان بأسلوب ـ أكان جيداً أم سيئاً ـ هو أسلوبي. أقارن بين هاتين الشخصيتين لانهما التمظهر عينه للظاهرة عينها ـ عدم التكيف مع واقع الحياة، وأضف إلى ذلك، عدم التكيف العائد إلى الأسباب عينها وإلى الدوافع نفسها. لكن وكما أن اللغة هي نفسها عند بارون تيف وبرناردو سواريش، إلا أن الأسلوب مختلف: فعند النبيل، هو أسلوب ثقافي، خالٍ من الصور، وهو، كيف أقول ذلك؟ أسلوب جاف وضيق؛ بينما أسلوب البورجوازي هو أسلوب منساب، يتشارك مع الموسيقى والرسم، لكنه يظهر بشكل أكثر هندسية. يفكر النبيل بوضوح، يسيطر على عواطفه، لا على أحاسيسه؛ بينما لا يسيطر البورجوازي لا على عواطفه ولا على أحاسيسه، وحين يفكر، يبقى فكره فرعياً عن الإحساس.

ومع ذلك، هناك تشابهات صادمة بين برناردو سواريش والفارو دو كامبوش. لكننا سرعان ما نقع عند هذا الأخير، على لغته البرتغالية المهملة، على عدم تناسق الصور، لأن ذلك يبدو أكثر حميمية وأقل تحسباً عند سواريش.

يقودنا أحياناً الجهد المبذول من أجل تمييزهما عن بعضهما البعض، إلى أخطاء تزن بثقل فوق قدرتي على

مكتبة الفكر الجديد

التمييز الروحاني. أي أن نميّز مقطعا مموسقا عند برناردو سواريش من أي مقطع عند شخص آخر، ويحمل محتوى مماثلا، لكنه هو مقطعي أنا...

في بعض الحالات، أقوم بذلك بشكل آني، وحتى إن شعرت بالدهشة بشكل كامل؛ يحدث هذا بدون أي زهو، لأني لا أؤمن بأي شذرة صغيرة من شذرات الحرية الإنسانية، فما يحدث في داخلي يدهشني كما لو أن ذلك يحدث عند شخص آخر ـ عند هذين الغريبين المتكاملين.

فقط، هناك حدس يمكن له أن يصبح بوصلة لي في هذه المساحات الروحية الشاسعة؛ وحده معنى واحد يستعمل الذكاء ـ من دون أن يشبهه مع ذلك، وبرغم ما يجعلهما يذوبان الواحد في الآخر ـ يتيح لي أن أميّز هذه الشخصيات الحلمية من واقعها، وإن كانت مختلفة فيما بينها.

*

نجد في تضاعف الشخصية، أو بالأحرى في إبداع هذه الشخصيات المختلفة، درجتين أو نوعين، سيتعرف إليهما القارئ النبيه، عبر طبائعها المميزة. في الدرجة السفلى، نجد أن الشخصية موسومة بأفكار وأحاسيس خاصة بها وهي كليّاً مختلفة عن أحاسيسي أنا. أضف إلى ذلك، أنه وفي المستوى الأدنى لهذه الدرجة الأولى، نجدها تتميز عبر أفكار معروضة

مكتبة الفكر الجديد

خلال التحليل أو الحجج، لكنها ليست أفكاري، أو حتى لو كانت أفكاري، فأنا أتجاهلها كليّاً. «المصرفي الفوضوي» هو مثال على هذا المستوى المتدني؛ أما «كتاب القلق» لبرناردو سواريش، فهو يمثل المستوى الأعلى.

سيلاحظ القارئ، وعلى الرغم من أنني سأنشر «كتاب القلق» على أنه كتاب شخص يدعى برناردو سواريش، يعمل محاسباً مساعداً في مدينة لشبونة، إلى أنني لم أدخله، برغم كلّ شيء، في «متخيلات الفاصل الترفيهي» هذه. وهذا عائد إلى أن برناردو سواريش، إن كان يختلف عني بأفكاره وأحاسيسه وطرقه في الرؤية والفهم، إلا أنه لا يختلف عني، في هذه الأثناء، في طريقة عرضها. أرسم صورة شخصيته بطريقة مختلفة مستعملاً لأسلوب هو أسلوبي الطبيعي، ولا يبقى أمامنا للتمييز إلا النبرة الخاصة التي تولد، بشكل لا يمكن تجنبها، من خاصية الأحاسيس نفسها.

لا نجد، عند مختلف مؤلفي «متخيلات الفاصل الترفيهي»، أن الأفكار والأحاسيس هي التي تميزهم عني فقط: بل هي تقنية التأليف، والأسلوب اللذان يختلفان عن تقنيتي وأسلوبي. لقد تمّ هنا، إبداع كلّ شخص بطريقة كاملة و«مختلفة»، وليس فقط عبر طريقة تفكيره المختلفة. لهذا نجد أن الشعر يسيطر في هذا العمل. أما في النثر فمن الصعب جداً أن «تكون آخر».

مكتبة الفكر الجديد

النص الثاني

يومان، ثلاثة لشبه بداية حب...

كلّ ذلك ليس له أهمية، بالنسبة إلى متذوق الفن، إلا عبر الأحاسيس التي تولدها هذه الأشياء في داخله. الذهاب إلى أبعد، سيكون الأمر دخولاً إلى المجال التي تبدأ فيها الغيرة، العذاب، الإثارة. في هذه الغرفة المضادة للعاطفة، نعرف كلّ نعومة الحب بدون عمقه ـ إذا فهو متعة خفيفة، عطر رغبات هائم؛ فإن فقدنا بذلك العظمة المرتبطة بتراجيديا الحب، علينا أن لا ننسى، في هذه الأثناء، أنه بالنسبة إلى متذوق الفن تبدو التراجيديات هي أمور على درجة كبيرة من الأهمية للمراقبة، لكن غير ملائمة أبداً للبرهان. حتى العناية نفسها التي يمكن لها أن توفرها لخياله تمت عرقلتها من قبل تلك التي تتعلق بوجودها. إننا لا نهيمن إلا بعيداً عن السفيه.

في الحقيقة، أجدني أُسرّ بسهولة بهذه النظرية إن استطعت أن أُقنع نفسي بأنها ليست هي النظرية الواقعية،

مكتبة الفكر الجديد

بمعنى أنها ضجيج مشوش أصنعه لأجل أذُنيّ ذكائي، لكي أمنعها من أن تفهم، إنه في المحصلةِ النهائية، لن يكون هناك سوى خجلي وعدم كفاءتي للعيش.

مكتبة الفكر الجديد

النص الثالث

في الواقع لم أكن محبوباً سوى مرة واحدة

في الواقع، لم أكن محبوباً إلا مرة واحدة. التعاطف وجدته طيلة حياتي، عند العالم بأسره. حتى علاقة مبهمة لم تكن تزيد في نظري عن بذاءة وفجاجة، أو ببساطة عن برودة. التقيت أحياناً بلحظات ودّ كان يمكن لي ـ أخيراً، ربما ـ فيما لو وضعت فيها القليل مني، أن أحولها إلى حب أو مودّة. لم أعرف أبداً الصبر أو الاكتفاء الروحي الكافيين لكي أجد فقط الرغبة في القيام بالجهد الضروري.

حين بدأت بتأمل هذه الظاهرة في نفسي، ظننت بداية ـ وهذه هي الصورة عن عدم تمييز أنفسنا ـ أن هذا الجزء من طبيعتي يمكن له أن يشرح نفسه عبر الخجل. اكتشفت لاحقاً أن ليس لدي منه أي شيء، لكن وعلى العكس من ذلك، كنت أشعر بقرف ما من العواطف، وهو قرف مختلف جداً عن القرف من الحياة، كما أشعر بنفاذ صبر ما من فكرة أن

مكتبة الفكر الجديد

أجد نفسي مرتبطاً بشعور مستمر، وبخاصة أنه يتوجب عليّ أن أرتبط بمجهود مستمر. «لأجل ماذا»؟ كان يفكر في داخلي الذي لا يفكر. أمتلك أيضاً ما يكفي من الدهاء ومن اللباقة النفسية كي أعرف «الكيف»؛ إنه «كيف الكيف» الذي هرب مني دائماً. شكل ضعف إرادتي دائماً، وفي البداية، ضعف إرادة في الرغبة؟ كان بالنسبة إلى عواطفي كما لذكائي، لرغبتي نفسها. ولكل ما هي عليه الحياة.

لكن في اليوم الذي جعلني فيه قدر خسيس أعتقد بأنني أحبّ، وأن أستنتج بأنني كنت أنا نفسي محبوباً، شعرت في البداية بالانزعاج والحيرة، كما لو أنني ربحت الجائزة الكبرى بعملة غير قابلة للتحويل. شعرت لاحقاً ـ ولأنّ لا أحد إنسانياً إن لم يعرف هذا الشعور ـ بزهو خفيف؛ فعلى الرغم من كلّ شيء، فإن هذا الشعور الذي يمكن له أن يظهر طبيعيا، اندثر بسرعة. هو شعور من الصعب تحديده حلّ مكانه، لكن كانت تنفك عنه وبشكل غير لطيف كليّاً، انطباعات السأم والذل والتعب.

من السأم، كما لو أن القدر فرض عليّ مهمة مشينة، وبطريقة ما، ساعات عمل إضافية. من السأم، كما لو أن واجباً جديداً ـ واجب تبادلية بشعة ـ أضيف إليّ، بسخرية، مثل امتياز، وقد توجب عليّ أن أفرضه على نفسي، خلافاً

مكتبة الفكر الجديد

للسوق، وأنا أشكر هذا المصير عينه. من السأم كما لو أن الرتابة غير المكثفة للحياة لم تكن تكفي ليتوجب عليّ في هذه اللحظة أن أضيف عليها الرتابة الإجبارية لشعور محدد بطرقة جيدة.

مكتبة الفكر الجديد

النص الرابع

جمالية اللامبالاة

أمام كلّ شيء، ما على الحالم أن يبحث عن الإحساس به، هو اللامبالاة الواضحة جداً ممّا يسببه له هذا الشيء، بصفته شيئاً.

أن تعرف ـ بغريزة تلقائية، تجريدية لكل شيء أو لكل حادث ـ ما يمكن له أن يحمله من حلمية، هاملاً، وما هو ميت في العالم الخارجي، كلّ ما يمكن له أن يمتلكه من واقع ـ هذا ما على الحطيم أن يبحث عن تحقيقه في داخله.

أن لا يبرهن المرء بصدق عن مشاعره الخاصة، وأن يرفع انتصاره الشاحب لدرجة أن ينظر بلا مبالاة طموحه الخاص، رغباته وحسده؛ أن يقارب أفراحه وكربه مثلما نقارب شخصاً بدون أهمية.

إن أكبر إمبراطورية على الذات، هي اللامبالاة تجاه أنفسنا، حين نحكم على أنفسنا، جسداً وروحاً، مثل المنزل والمجال الذي رغب القدر في أن نعيش فيهما حياتنا.

مكتبة الفكر الجديد

أن يعالج المرء أحلامه الخاصة، رغباته الأكثر حميمية، برفعة، وعبر وضع نوع من الحميمية المرهفة لكي لا نلاحظ ذلك. على المرء أن يمتلك احتشاماً ذاتياً؛ أن يفهم جيداً أنه في داخل حضورنا لسنا وحيدين، أننا شهداء على أنفسنا، فمن المهم إذاً أن نتصرّف أمام أنفسنا كما نتصرف أمام شخص غريب، بأسلوب خارجي مدروس ومطمئن؛ غير مبال، أن يكون أرستقراطياً وبارداً، أن يكون غير مبال.

ولكي لا نسقط من أعيننا، يكفي علينا أن نعتاد على ألا يكون عندنا لا طموحات ولا شغف، لا رغبات ولا آمال، لا نبضات ولا تصرفات. ولكي ننجح في ذلك، لنتذكر دائماً أننا موجود في حضور أنفسنا، بأننا لسنا وحيدين إلى هذه الدرجة وبأنه يمكننا أن نمتلك راحتنا كليّاً. وسنهزم بذلك نزوعنا على إيجاد الشغف والطموح، لأن الشغف والطموح هي أخطاء في درعنا؛ لن يكون لدينا رغبات وآمال، لأن الرغبات والآمال هي مواقف خسيسة وغير أنيقة؛ لن تكون لدينا نبضات وتصرفات، لأن الاستعجال يمثل عدم لباقة في نظر الآخرين، ولأن عدم الصبر بذاءة دائماً.

الأرستقراطي هو رجل لن يعرف أن ينسى أنه ليس وحيداً أبداً؛ لهذا نجد أن اليافطات والبروتوكولات هي حكر على الأرستقراطيات. لنكبح الأرستقراطي. لننزعه من هذه الصالونات ومن هذه الحدائق، لنحوله في روحنا وفي وعي

مكتبة الفكر الجديد

وجودنا. لنكن بدون توقف أمام أنفسنا، لنحترم اليافطة والبروتوكول، لنكمل الحركات المدروسة والمصنوعة من أجل الآخرين.

كل واحد منّا يشكل مجتمعاً صغيراً، شبيها بحيّ من الغموض؛ لكن يلزمنا على الأقل أن نحيل الحياة أنيقة ومميزة وأن نسِمَ بكياسة ظريفة احتفالات فكرنا. كلّ شيء من حولنا، الأرواح الأخرى يمكن لها جيداً أن تبني أحياء فقيرة ومتسخة؛ لنسجل بوضوح أين يبدأ حيّنا وأين ينتهي، وذلك بدءا من واجهة صروحنا الباذخة ولغاية الغرف السريّة مثل صوت خفيض وبدون استعراضية.

علينا أن نجد، لكل إحساس من أحاسيسنا، وسيلة أن نحقق أنفسنا بطريقة مطمئنة. ماذا يفعل الحبّ إلا في إحالة نفسه لأن لا يكون سوى ظلّ حلم حبّ، سوى مسافة شاحبة ومرتجفة بين عُرفي موجتين عارمتين ضربهما القمر. أن تصنع من الرغبة شيئاً غير مفيد ومسالم، مثل ابتسامة روح رهيفة رأساً برأس معها بالذات؛ وأن نصنع منها شيئاً لا يحلم أبداً في تحقيق نفسه، ولا أن تقول نفسها. لنجعل البغض يغفو كأفعى مأسورة، وأن نقول للخوف أن لا يحتفظ، من كلّ هذه العبارات، إلا بالقلق في عمق النظرة، وفقط في نظرة روحنا، لأنه الموقف الوحيد الملائم لهمه في أن يكون استيطيقياً.

مكتبة الفكر الجديد

الفهرس

تمهيد أول ٥
تعليق تمهيدي ٧
ملاحظة في النشر ١٣
مخطوط وُجِدَ في دُرج ١٧
(كنت طفلاً) ٢٩
(إغواء ماريا أديلاييد) ٤٩
ملحق ٧١
المبارزة ٧٣
ثلاثة متشائمين ٧٥
ليوباردي ٨١
كلمة ختامية ٨٣
ما بعد الوفاة ٨٧
إضافات المترجم إلى العربية ١٠٣
النصوص الملحقة بالترجمة العربية ١٠٥
النص الأول: مقدمة «متخيلات الفاصل الترفيهي» ١٠٧
النص الثاني: يومان، ثلاثة لشبه بداية حب... ..... ١١١
النص الثالث: في الواقع لم أكن محبوباً سوى مرة واحدة .. ١١٣
النص الرابع: جمالية اللامبالاة ١١٧

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

لكيلا أترك هذا الكتاب، فوق طاولة غرفتي، ولكيلا أعرضه كثيراً لتفحص الأيدي ـ الواضحة بشك ـ أيدي عمّال الفندق، فتحت ـ وبدون أي مجهود يُذكر ـ دُرج طاولتي لأدعه ينزلق إلى داخله، دافعاً إيّاه إلى أعمق أعماقه. بيد أنه اصطدم بشيء ما، فالدُرج كان عميقاً إلى درجة كبيرة.

مكتبة
الفكر الجديد
01-06-2018

ISBN 978-9933353773
9 789933 353773